حياتي

قبل الحياة

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤

روايات اجتماعية

جمال شاهين

حياتي قبل الحياة


حياتي


قبل


الحياة

نادي القراءة

دخلت قاعة القراءة الكبرى في نادي القراءة في شارع القارئ ، في هذه القاعة تجد عددا كبيرا من القراءة الصغار والكبار الذكور والاناث ، ولا يجلس فيها إلا من يرغب في القراءة فقط ، أما من أحب الثرثرة والمجادلة فهناك قاعات أخرى لذلك ، وفي النادي مقاهي صغيرة لجلسات خاصة أو عائلية ، ومطاعم متنوعة ، ولديهم في النادي مسرح صغير ، وصالة عرض لأفلام خاصة ، والاشتراك في النادي كعضو مقابل مبلغ يسير .

وأهم رواد النادي الأدباء والشعراء وغيرهم ، والنادي مفتوح لكل المواطنين ، ولا أريد أن أزيد في وصف نادي الثقافة والقراءة المجانية ، المهم أنني زرت النادي على موعد مسبق مع ثلاثة أشخاص عرفتهم من زمن بعيد من أيام المرحلة الاعدادية وأحببتهم ، أقصد الصديق العزيز مال الدين حسين الدين .. وثاني عرفني عليه مال الدين في المرحلة الثانوية ، ثم قبل سنوات عرفني على توأمه الأخت الفاضلة أولى التي تركت المعهد الفرنسي وتزوجت رجلا قد تزوج مرات متعددة ، وعملت في المعارف كمدرسة حتى تقاعدت من زمن يسير .

درسنا في مدرسة اعدادية واحدة أنا ومال الدين ، وكنا نقرأ الروايات البوليسية معا سواء في المدرسة أو في المنازل ، ونتبادلها ، ولما انتهى الثالث الإعدادي رحل لمدرسة ثانوية ، وذهبت لأخرى ، وظللنا أصدقاء لليوم عام ١٩١٧ ، وأصبحت أستطيع كتابة رواية ، وأستطيع تأليف كتاب ،فرغبت أن يحدثني عن أشياء عن حياته ؛ لعلي أستطيع تحويلها لقصة يتسلى بها الناس وذكرى لي ، ويطلع عليها الأجيال القادمة ؛ كي يعرفوا صورة مجتمعنا ؛ كما نجتهد لنعرف كيفية كانت حياتهم ومعيشتهم ، وبعد نقاش جاد قَبل أن يتحدث عن محطات مهمة منها ، أو أهمها واخترنا الحديث عن علاقته بأسرة ثاني موسى شاب تعرفنا عليه في فترة الثانوية .. وقصته فيها أشياء مهمة ..كيف هي حياة تلك الأسر الغنية إلى حد ما ؟ وكيف يستطيع الانسان التخلص من رواسب الماضي مهما كانت ؟ وأن التوبة يمكن أن تكون لكل عاصي أن يتحصل عليها مهما ارتكب من المعاصي .. ووافقت السيدة أولى بالحديث عن علاقتها وعواطفها نحو

مال ومقاومته لرغباتها الشهوانية ، وأنه استطاع أن يقنعها بالشفاء من كل أمراض المدنية والرغبة التي تدفع الناس للضياع مهما كان السقوط ، وذلك الفصل الذي كتبته عن نفسها واعترافاتها الصريحة ، قد تُعين من عاشت بمثل ظروفها وحالها أن تعود للحياة السليمة المتوافقة مع الحياة الإسلامية ، ولا تبقى على عنادها ، وتستسلم لشيطانها إلى الأبد .

قرأت في كتاب لمدة ساعة ، ثم غادرت قاعة القراءة متوجها لمطعم النادي الذي يسمونه المطعم الصحراوي بسبب شبه قاعاته بلون الصحراء والرمال حيث سيكون اللقاء على مائدة مال .

وما كدت أجلس حتى رأيت ستة عيون تحدق بي باسمة ، فابتسمت لهم ، وانتقلت لمائدتهم مصافحا لمال وثاني ومحييا لأولى ، ومعزيا بوفاة زوجها فشكرتني ، ورحبنا ببعضنا ، وتحدثنا عن أمورنا الخاصة، وأخبارنا ، وتناولنا وجبة مشتركة ، توددنا فيها لبعضنا بعضا حتى أني قلت لأولى: هل من زواج جديد ؟

ابتسمت وقالت : حدث ثاني عزيزي مالا بذلك فقال : أولى تترمل يا مال .. فهي كانت تريدك زوجا .

فقلت : وماذا رد مال يا ثاني ؟!

فتنهد ثاني وقال: قال بعد سبع وخمسين سنة نعدد ! وبعد أن داهمتنا الامراض نكرر .. أولى ذكرى جميلة يا ثاني ! ولا امرأة بقيت لي صديقة إلا هي .. فلنبق على ذلك .. وهي أخت فاضلة .. وكلما ترغب بزيارتها ؛ فأنا مستعد لمرافقتك نتبادل معها الحديث عن الروايات وغيرها .. فما زالت هذه الهواية تصاحبنا .

قال أولى : هذا أفضل يا جمال ! .. فصحتي اليوم لا تجعلني زوجة تقوم بواجباتها الزوجية ، ولن أتخلى عن شقيقي ثاني الأرمل مثلي من سنوات .

قال : أنت تعشين في بيتكم في درب القلعة !

قالت : نعم ، عدت إليه والعود أحمد كما كنا نعيش أيام والديّ وأهلا بكم في كل وقت وحين .

قال مال مندهشا : هل رحلت ؟!

قالت : منذ أن انتهت عدة الوفاة قبلني ثاني بالحياة معه .

فقال مال : هذا أسهل للقاء بك ! لم أعرف هذه المعلومة إلا الآن .

قال ثاني مبتسما : لها أيام معي يا مال .. والحمد لله ـ ووضع كفه على صدره وقلبه ـ وأنا سعيد بعودتها للبيت.. وكما تعلم أن شقيقي يزيد يعيش في الطابق الأرضي منذ وفاة والدتي .. وأنا في الطابق الاعلى .. واليوم لماذا التقينا هنا ؟

فقال الكاتب الراوي : لشكركم على ما كتبتم من خصوصياتكم ، ولأعزي أولى وإن تأخر عزائي ؛ لأنني لم أكن في المدينة من شهور ، ولأخذ موافقتكم على نشر ما اعترفتم به ، وامكانية نشره كما كتبتم ؛ لعل من اطلع عليها يعلم أن باب التوبة مفتوح ، وأن السعادة بالعودة إلى الإسلام مهما ارتكب الانسان من الآثام ، وأنه يمكن للمبتلى بالجنس ومشاهدة أفلامه أن يلجأ للإسلام ؛ لينجو من براثنه كما حصل لكما .

فقال مال : ويرغب صديقنا بإلقاء عددا من الاسئلة علينا خاصة أولى .

فقال الراوي : نعم، إذا أحبت ذلك ، والاسئلة حساسة نوعا ما ؛ وربما محرجة ؛ ولكن حراجتها أقل مما قلتموه .

قالت المرأة : هنا ..!!

قال : سنرتب لهذا إذا قبلتم .. وأقترح أن يكون في منزلك يا ثاني .

قال ثاني : لا مانع لديّ في الاجابة على أي سؤال أما أولى فلا أدري ؟

التفت الجميع إليها وقالت : كيف هي الاسئلة ؟

قال : عن المرأة والحياة الجنسية .

قالت بتردد قصير : إذا كان السؤال مناسبا أجيب عليه .. فأنا مربية ومدرسة وأواجه ؛ بل واجهت مثل هذه المشاكل من الطالبات والمراهقات .

انتقلنا لأحد مقاهي النادي ؛ لنشرب القهوة ، ونرتب لموعد مناسب لعرض بعض الاسئلة المحرجة على أم جلال .

ذهبنا لبيت ثاني في درب القلعة ، وطفرت الدموع من مال عندما دخل البيت وهو يصعد للطابق الثاني .

فقلت : تذكرت الماضي.

قال : تذكرت الماضي وأم ثاني وأباه .. كلما ألتقي بثاني هنا تدمع عيناي يا جمال .. كانت تألفني تلك المرأة ـ رحمها الله ـ وتتحدث معي كصديق ورجل كبير .. رغم صغر سني يومئذ .

وجدنا ثانيا قد أعد لنا غداء وضيافة ، فقبلنا ضيافته وشقيقته، وترحمنا على الأموات وذكريات الطفولة والمراهقة .

وقدمت لنا خادمته الشاي والفواكه ، وتحدثنا عن أحوالنا وذرياتنا وقال مال : لنبدأ لمَ اجتمعنا له .

قلت : السؤال للجميع ..هل وجدتم من فرق بين الحياتين حياة الجهل والعصيان وحياة التوبة ؟

تركوا الإجابة أولا لأم جلال ، فابتسمت وقالت : تقديم المرأة حسنا ! وهل لهذا التقديم سند شرعي ؟

صمت الثلاثة وقال مال : الدكتور يشير للعبد الضعيف بالرد .. بارك الله فيكم .. الاكرام والاحترام مستحب إن لم يكن واجبا .. الحق أن هناك تفصيلا .. ففي بر الوالدين حق الأم مقدم على حق الأب للحديث الصحيح عن النبي ﷺ أمك أمك أمك .

قال جمال : جميل ! حملته أمه وهنا ووضعته وهنا ، ثم الرضاعة .

قال مال : إكرام العالم والرجل الكبير والمرأة الكبيرة وذو الشيبة مطلوب شرعا ، والايثار مرغوب فيه ؛ لكن قولهم لا إيثار في القربات أو الطاعات بعضهم يرى ذلك ، وابن القيم الامام عارض هذه القاعدة في بعض كتبه وبعضها أيدها . وحق الضعيفين حرج عليه النبي ﷺ أما عبارة النساء أولا فهناك تحوم حولها قصصا أشهرها القصة الإيطالية أن شابا أحب فتاة وأحبته

ورفض أهلهما زواجهما ، فقتل نفسه قبلها ، وهي نكصت ، ثم تزوجت غيره فلذلك ظهرت عبارة النساء أولا من باب الحذر الذي ظاهره الاحترام ، ثم أصبح هذا عرفا في الغرب وعند الاحداث الجسام يقدم انقاذ النساء والاطفال على الرجال وفي كثير من الامور .

قال الكاتب : جميل فعلا ! لعل السيدة تجيب أولا .

قالت أولى : دائما أنت ممتع يا مال ! ما زلت تقرأ .

فضحكنا وقال ثاني : مال عجيب ! شكرا لك يا صديقنا .

قالت السيدة : حياتي بعد التوبة بالتأكيد أفضل وأروع .. فرق كبير بين حياة الهدف والغاية واضحة منها رضا الله والجنة ، وحياة من أجل الحياة ، ثم موت لا أدري ما بعده ! كنا نبحث عن متع الدنيا بدون غاية .. لهو ولعب وإضاعة الوقت .. هذا ما عندي .

قال ثاني مكملا : كان همنا اشباع الغرائز والحاجات الفسيولوجية فقط .. أما الروح فلم يكن لنا أي اهتمام بها ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ الحياة بعد الضياع كما قالت شقيقتي أرقى وأعظم .

قال مال : أنا فترة ضياعي كانت أقل منهما ؛ لكن حياتي بعد التوبة والعودة أفضل وخير مليون مرة عن حياة الجاهلية .. ذاك الفضل من الله لنا جميعا .. قد تكون توبهما أكثر دفئا مني ، فالذي يقع في الآثام أكثر تكون توبته فيها حرارة أكثر ؛ ولكنها توبة ، فأنا مثلا لم أعرف الخمر والنساء .

قال ثاني : ما أصعب أن يكون هدفك في الحياء لمجرد الشهوات والملذات !

قالت أولى : المشكلة البيئة والتربية .. الكل لديه الرغبة بكسب الملذات .. هكذا الحياة في نظرهم .. مال يجلب ، ثم ينفق على تلك الشهوات بدون ضوابط ، بدون غايات عظيمة .

قال الكاتب : جزاكم الله خيرا .. المهم لماذا الجنس يفسد حياتنا ؟

قال ثاني : لابد منه للحياة ، وهو فطرة وطبع وغريزة خلقت فينا والانبياء مارسوه .

قال مال : بالزواج ، ولم يفعلوه خارج الزواج .

قال ثاني : أكيد .. أنا قصدي الحاجة الجنسية مغروزة في الجنسين الذكر والأنثى ، فكما نأكل ونشرب ونتنفس ونُخرج وننام فالجنس مثل ذلك .

قال الكاتب : هذا مسلم به يا أصدقائي !.. السؤال لماذا نذهب إليه خارج العلاقة الزوجية ؟

قالت أولى : كما قال ثاني الغريزة فينا كغيرها من الغرائز ، وتبدأ ظاهرة بعد سن البلوغ لكلا الجنسين ، ويبدأ التفكير فيها ، ويتفاوت ذلك بين شخص وآخر ، والمجتمع الذي يعيش فيه الشخص هو الذي يكبح اندفاعها أو الاندفاع فيها دون محاسبة .. فنحن الشرقيون لا نحب تصريفها إلا في علاقة شرعية في مؤسسة الزواج يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ؛ فإنه أحصن للفرج ، وأغض للبصر فالبصر مفتاح الجنس .. أما المسلم الذي يجهل دينه ، ويجهل الحلال والحرام ؛ فإذا وجد منفذا إليها سيذهب إليه سواء بالمال أم بالحب والغرام .. فنحن نسميه الزنا ما دام لم يكن هناك زواج .. وغيرنا يسميه غراما وعشقا وخدنا ما دام بالرضا .. والسن له دور كبير في هذه الغريزة اقداما أو تراجعا .. تفكيرنا فيها اليوم ليس كما فكرنا فيه أيام الشباب .

قلت : والبرود الجنسي أهو مرض ؟

قالت : أنا معلمة ، ولم أدرس علم النفس إلا كثقافة .. وكنت أرى ما تعاني منه المراهقات خاصة الضعيفات في التحصيل الدراسي فينشغلن فيه كثيرا .. توصف الكثير من النساء بذلك .. لأن الرجل يستطيع إنهاء الجماع بدقائق وأما الانثى فيتحقق لها ذلك بعد زمن .. فهذا ما يدفعهم لوصف الأنثى بالبرود .. وربما لا تهتم بما يقال عن النشوة والرعشة ..المهم عندها الحب والعاطفة والاشباع العاطفي بالكلام بالغزل واللمس .. فالزواج هو من أجل الجنس وقضاء الرغبة .. فالمرأة تلبس وتأكل وتشرب في بيت والديها فلماذا تقترن برجل ؟ ! زين للناس حب الشهوات من النساء فالرجل هدفه الجنس والمرأة هدفها الحب .. وهذا معروف من قدم الزمن .. فالمرأة عندما تحمل تقل رغبتها في اللقاء ؛ إنما تقبل به إرضاء للزوج .. وهي مستعدة لقضاء أربعين يوما في النفاس ولا تفكر به ، ولا يعني هذا أنها عديمة الرغبة ؛ لأنها كما قلتم

حاجة فسيولوجية ، يحتاجها الجسم .. والحديث النبوي موجه للذكور يا معشر الشباب والمرأة تستطيع أن تعيش أرملة أكثر من الرجل.. وأيضا الزوجة الأهم عندها الولد والامومة ، وفي نظري هي أصبر من الرجل عن المعاشرة .

قلت : وما تقولين بالحرية الجنسية والزنا؟

قالت : يقصدون بالحرية الجنسية ممارسة الجنس بدون زواج وعقود مثل البهائم تماما ودون مساءلة .. والفتاة تستدرج لذلك بداية بالحب والكلام الجميل والغزل وهذا الذي يثيرها وترغب فيه ، وأن يكون لديها حبيب ، ثم تتطور العلاقة للجنس؛ لأن الشاب يريد ذلك ، وهي تقبل ظانة أنه صادق العواطف ، وهو أخذ ما أراده منها ، وأصبحت ضحية له ، ثم سيملها وسيعتقد أنها سلمت نفسها لغيره ، كما سلمت نفسها إليه ، فينتقل لغيرها .. أما لماذا تقبل الزوجة وذات الزوج الزنا ؟ فأعتقد أن ذلك له أسبابا كثيرة ، قد تكون الرغبة والشهوة ، وأن الزوج لم يحقق لها ذلك بسبب الامراض والعنة ؛ لأنه ليست كل النساء بنفس القوة والشبق والاعتدال .. فلها حيز في جسدها ، وقد يكون فعلها للثأر لكرامتها من زوجها بكثرة خيانته لها .. فأنا عشت في أسرة فاجرة ـ أقصد أسرة زوجي الأول ـ الكل يبحث عن الزنا والانحرافات الجنسية ، وتعرضت للإذلال بسبب هذه العلاقة يا سيدي ، ولم أكن أعرف من الدين شيئا ؛ فلذلك اضطررت أن أتخذ العشاق عمدا ، ولم يكونا بتلك الفحولة التي يتحدث عنها بعض الناس .. كانت معاندة لمازن كما كتبت ، وأنني لم أهتم بهجره لي .. وتذكر عندما تقرأ قصتي كان ذلك لقبول هؤلاء لي ، وأن وجود ذكر ليس من الأمر بصعوبة ؛ إنما تسلية والتخلص من الانشغال بتلك الرغبة الملحة .. وتذكروا أنني لم أكن متدينة لأخشى هذه الجريمة .

قلت: أشكرك الدين هو المانع للإنسان من السقوط والركض وراء هذه الرغبة ولو بالزنا .

قالت : أكيد وليس الخوف من أمراض الجنس وغير ذلك أليس كذلك يا ثاني ؟

قال ثاني : بلى ، هذا صحيح .. أنا وقعت في الفاحشة صغيرا وكبيرا ، بدأت تسلية ورغبة سهلة التحقق .. يختلف هدفي عن هدف أولى .. وأنا تلك الأيام كنت أشفق على أولى ، وأتعجب من

صبرها عن الرجال ، وكبتها لرغبتها الجنسية .. فنحن أقصد عائلتنا لم نكن ننظر للقضية ؛ كما ننظر إليها اليوم .. رغبة وعلينا تحقيقها سواء بالحلال أم الحرام .. فهذا الميزان غير موجود في العائلة هكذا تعلمنا يا جمال !

قال جمال الراوي : التحدث بهذا الأمر أمام البنات والفتيان بصراحة أصواب أم خطأ ؟

قالت : ربما في زمن كهذا .. زمن منفتح بالحديث عنه ، ووجود الصور والافلام الاباحية الحديث عنه مهم ، ويساعدهم بحماية أنفسهم ، فما يقول الدكتور ؟

قال الدكتور : الحديث جائز .. عندما نقرأ في كتب كذم الهوى لابن الجوزي ، وطوق الحمامة لابن حزم ، وأخبار النساء لابن القيم ، ونقرأ قصة النبي يوسف عليه السلام والكثير من الكتب داخل الكتب فيمكننا أن نتحدث عن الجنس بكل حرية ، وأرى أننا بحاجة بالحديث عنه أكثر لأنه أصبح يشكل خطرا على الشباب ذكورا واناثا ، والكثير من الجنسين جهال بالإسلام والتدين ، والتقليد للحضارة الغربية واضح في كل شيء أكل شرب لباس حلق الشعر ؛ فإذا تركنا هؤلاء بغير علم فسيضيعون كما ضعت وكما مرضت منه .. فكل شيء عندنا فيه علم .. الاستنجاء الاغتسال ادأب الزواج .. ما يقول عزيزنا مال ؟

ابتسم مال الدين وشكر وقال : الافلام الاباحية تملأ الانترنت ، وتختلف الغايات لكل شخص بالنظر إليها ، حتى أن البعض وصل للإدمان .. فنحن بحاجة لأدوية وحلول ؛ وكما قال الدكتور كثير من المسلمين لا يتحصنون بالدين والطهارة .. وهذه الغريزة من أقوى وأعنف الغرائز وأهلكت أمما كما نقرأ وحدث من قوم لوط لكن .. هل يكفي التثقيف فيها لحل مشاكلها ؟ هل يكفي أن نقول حرام ؟ هناك من لا يهمهم الحرام ، وهم يأكلون الربا .. فهي معصية مثل سائر المعاصي .. وهل يكفي حماية الشباب الملتزم المتدين منها ؟ فالضعف يقع فيه الجميع .. وسن الزواج ارتفع في كثير من بلداننا الاسلامية ، والطلاق زاد في غالب بلدان العالم .

قلت : حسن ما الحل ؟

قال مال : الحل ، لابد أن يكون هناك من حل وحلول .. والتمسك بالدين أحد الحلول ، فها

هم في الغرب يتعلمون عن الجنس من أول الابتدائي ، ومع ذلك بلدانهم ترتكب فيها جرائم الاغتصاب وهتك الاعراض .. والمرأة اليوم لها نفس صفات المرأة من أول الزمن .. والشهوات نفس الشهوات .. اليوم مثيرات الغرائز أكثر .

قال جمال : كيف نقاوم الافلام الجنسية ؟

قالت : أنا عندي فتيات تشاهد هذه الافلام بدون مانع .. ويعترفن بأن والديهنّ يفعلون ذلك .. فماذا سيمنعهن من الوقوع في الجنس إذا توفرت لهن الاماكن لفعل ذلك ؟

قلت: هذه هي المأساة يا دكتور !

قال الدكتور : حتى لو سمحنا شرعا بجواز رؤيتها هل ستعالج بذلك القضية ؟ فالنسبة للمتدين يكون الحل سهلا ، ولكن بالنسبة للصغار والجهال أنا في رأيي أن الأمر صعب .. الناس تعرف ضرر السجائر وتدخن ، يعرفون خطر الخمر ويشربونها .. أنا لا حل قاطع عندي .. فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

قال مال : الارادة للمبتلى أن يحمي نفسه ، ولا يشاهدها، ويبحث عن البديل الشرعي .

قلت : وما هو البديل؟

قال مال : البديل القراءة للكتب للقصص اشغال وقت الفراغ .

قال جمال : حسن .. لماذا العلاقة الجنسية مفسدة للحياة الزوجية ؟

قالت : لأنها الغاية من الزواج ؛ فإذا ضعفت ضعف الود والسكن بينهما .. وهي من أسباب فسخ الزواج ، وقد تكون من دوافع التعدد .. إذا كان الضعف من قبل الزوجة .. وقد تترك المرأة زوجها بسبب عجزه ومرضه .

قال الدكتور : إلا إذا كان كلاهما عاجزا عن المعاشرة بسبب .. أمراض .. كبر .. صبر أو أحدهم يرغب بالتضحية من أجل الآخر .

قال الكاتب : هل تكون السعادة بدون مال ؟

فقال مال : كل الفقراء سعداء من غير مال في الغالب .

هززت رأسي وسألت : هل تكون السعادة بدون جنس ؟

قال الدكتور : أعتقد جاوبنا على هذا السؤال ..لماذا العلاقة تلك مفسدة للحياة الزوجية ؟ يمكن أن تتحقق السعادة بدون جنس بقبول كل واحد منهما الآخر بكل عيوبه .

قلت : آخر سؤال .. الجهل بالجنس هل يضير ؟

قالت أولى : في رأيي لا يضير ، كما العلم به قد لا يفيد .. فهل القدماء وأهل الارياف والبوادي مثقفون في الجنس ؟ انهم يعيشون على الفطرة كما يقال .. وهذا أمر ينقل لهم بالتجربة ؛ لذلك تجد الكثير من الشعوذات والوصفات شائعة بينهم ..لا يضير الجهل به .

قال الدكتور : أعتقد أن جواب أولى فيه الكثير من الصواب .. فالقدماء والأميون في العالم يتزوجون ويعرفونه بدون ثقافة .. يتعلمونه من الحيوانات التي تعيش بينهم .

قال الكاتب : علينا أن نشرب آخر فنجان لنرحل .. وعندي عرض لكم يا ثاني وأخته .

خيم الصمت ، وحضرت القهوة التي اعدتها الخادمة ، ولما شربت .

قال الكاتب : بارك الله فيكم .

قال الدكتور : قلت أن لديك عرضا .

ابتسم هو ومال فقال الكاتب : العرض .. كلنا نعلم هوى أولى بالزواج من مال يا ثاني قبل هذه الحياة المديدة .. العرض هو خطبة الرجل لها .

قالت : وي يا جمال ! بعد كل السنين .

قلت : فكري يا سيدتي بعرضنا .. فأنتم من سن واحدة .. نفس العمر .. أنت كبيرة .. وهو مثلك .. تذكري أنه رجل العجوز .

قالت : ما الفائدة منه ؟ قال مال : شكرا يا أولى !

قال الكاتب : من سمع كلامك يظن أنك مراهقة .. ما رأيك يا دكتور ؟

قال ضاحكا :الرأي لأولى .. لقد أحبت الرجل بجنون حتى أني تفاجأت لما علمت بتلك الرغبة بالزواج منه ، وكان صديقي الفاضل يومئذ يخدم الجيش

نظرت أولى في عيني مال وقالت : أأنت جاد بعرض جمال ؟

رد : وهل هو يمزح ؟

قالت : يا الهي ! أفي هذا السن أتزوج ؟!

قال الدكتور نيابة عنها : على بركة يا أولى ! الاحلام تتحقق مرات في أجيال أخرى .

أخذت بالبكاء ،وانصرف الضيفان ، وقد قبلت بالزواج من حبيبها الأول ، ونقول بارك الله لهما وعليهما ، وجمع بينهما على خير ، ويسر لهما الاقتران والسعادة .

ولما نقرأ هذه الفصول من ذكريات الاصدقاء الثلاثة نحضر حفل زفافهما ونبارك لهما من جديد ونصف ليلة زواجهما الأولى فإلى الذكريات والاحداث .

البداية

بدأت حكايتي لما أصدرت وزارة المعارف نتائج الثانوية العامة لعام ١٩٧٨، لم أجد اسمي في قوائم الناجحين .. والحق أنني أعلم ذلك ؛ لأنني لم أقدم الاختبارات بشكل جيد ومريح ، فقد قصرت في بعض المواد وأهمها الرياضيات .

رغم الذكاء كما أزعم فشلت في اجتياز تلك المادة .. كنت ضعيفا في تلك المادة ، ولم أتحصل على دروس تقوية ، وخاصة فيها وفي مادة اللغة الأجنبية .. فنحن نأخذ مادة لغة أجنبية انجليزية أو فرنسية .. فأخذت الاولى منهما .. وعلى ما أظن حملتها مع مادة الرياضات الفرع العلمي .

كان صديقي ثاني أذكى مني في مواد الدراسة والحفظ والاستذكار .. فكان نجاحه متوقعا ، ولم يكن مفاجئا ، وكذلك نجاح شقيقته أولى توأمه . كنت أعيش في وادي النزهات ، وهو يسكن في درب القلعة ، ولم يكونا بعيدين عن بعضهما ، وكلاهما من أحياء المدينة الكبيرة .

المدرسة الثانوية بين الحيين هي التي جمعتنا ، وتعرفنا فيها على بعض ، من الصف العاشر درسنا سوية ثلاث سنوات ، كان بيته بيتي ، وكانت الثانوية تلك الأيام أول وثاني وثالث .

التقينا أول مرة في ملعب كرة اليد ، وجمعنا الملعب ، فصرنا أخوة لعبة ومدرسة ، نجحت في اللعب أكثر منه ، وتقدمت فيها ؛ ولكني لم ألعب مع فريق المدرسة .. تقدم آخرون عليّ.

كان دراسة أكثر مني ، ونجح في النهاية ورسبت . قالت توأمه عندما ذهبت إليهم مهنئا ومباركا : خيرها في غيرها يا مال الدين ـ هذا اسمي ـ أحببت لك النجاح مثلنا ؛ لكنك كنت يائسا وبائسا تلعب كثيرا ومغرقا في اللعب والسجائر.

قلت : مبارك النجاح يا أولى ..تمنيت لك ذلك .. وشكرا على مواساتك.. أين رفيقنا ثاني؟

ـ تفضل أبي في الداخل .. ذهب لشراء بعض الحلوى لما علم بقدومك ـ إن شاء الله ـ تنجح في المرة القادمة .. أكيد ستعيد الكرة .

كانت أولى عندما تعلم بمجيء مال تلبس ثيابا جميلة وتمشط شعرها .. فهي ترى أنه يحب ذلك فرددت على أكيدها فقلت: لست أدري يا جميلتي ! دائما أنت جميلة .. والنجاح جمّلك أكثر ..

وجوابا على السؤال لست أدري ؛ ربما .. العلم عند الله يا أولى العزيزة .. سنفتقد الزيارات بعد الثانوية .

قالت وحبها معروف لديّ : لن نغلق الباب في وجهك .. أنت صديق العائلة ..كل العائلة .. ولَك مودة في قلوبنا جميعنا .

قال : سنفترق يا عزيزتي !

قالت بحماس : سنبقى أصدقاء كما كنّا في هذه السنوات الثلاث .. أنت عزيز على القلب يا سيد مال الدين .. كل العائلة تعتبرك ابنا لها .. فالحديث معك ممتع .. هل قرأت قصصا جديدة ؟!

تبسمت وقلت : نعم ، قرأت العربي المجلة .. وبعض الألغاز المصرية التي نحب متابعتها التي قد وصل أعداد جديدة منها .. سآتيك بها .

قالت : إني بدأت أقرأ أجاثا كريستي طبعة المكتبة الثقافية .. لقد أحضر لي الوالد بعضها فهو محب لها .

ـ قرأت لها قصة أو اثنتين .. الشبح الغامض ، ولا أظن أنه الاسم الحقيقي .

خرج والد أولى أبو ثاني مرحبا بمال ومصافحا ، وبارك له مال بنجاح ولديه ، وتمنى موسى والدهما النجاح له في الجولة القادمة.

فقال مال : إذا تقدمت إليها يا سيدي .. اعلم أنني مسرور لم حصل لولديك الآنسة أولى والعزيز ثاني .

جلس مال في غرفة الضيوف ، وقدمت أم ثاني ، وقبلت الشاب صديق ابنها البكر كما تفعل في كثير من الأحيان ، ورحبت به .. فهو صديق ابنها الأهم في السنوات الأخيرة .. وكم سهرا معا .. ودرسا معا .

فقالت : كان عليك أن تجاهد يا مال .

ـ فعلت يا خالتي .. الرياضيات مادة كانت صعبة عليّ رغم حبي لها.

قالت : لعل المرة القادمة تكون أفضل .

ـ لا أدري! هل ستكون جولة قادمة ؟

قالت أولى : اسمح لي أن أحضر لكم الشاي .

هززت رأسي وقلت : شكرًا يا أولى سنفتقد شايك .

قالت أم ثاني : ستبقى صديق العائلة يا مال .. فهذه سنوات من العمر مضت تعودنا على وجودك معنا في المساء والليل .. ستبقى صديق الشباب حتى أولى كانت تحب وجودك الدائم وتعتبرك أفضل من كثير من صديقاتها وزميلاتها في المدرسة .. وترتاح في الحديث معك لصغرك وثقافتك خاصة غرامك في المطالعة التي تهواها .. فحتى ابني يزيد يحبك ويغرم باحاديثك الشيقة وأخبارك الغريبة .

قال : أنا أقدر لكم حبكم لشخصي يا خالتي .. كنتم لي كالأهل .. لن أنسى صداقتكم لي وكرمكم وتحملكم لإزعاجي .. افكر بتسليم نفسي للجيش .. وأخدم ما عليّ .. ولا داعي للتأجيل قبل اعادة الكرة .

قال موسى : الأفضل يا مال أن تدرس قبل الجيش .. فهو لن يطير .. ويصبر عليك .. أخشى إن قدمت الجيش أن تنسى الثانوية بسبب خدمة الجيش .

قالت الأم: كلام عمك موسى في موضعه ومحله .

قال : النفس شالت كما يقال من الدراسة .

قال موسى : لا تيأس يا ولدي ..فأنا قلت ذلك حتى لا تنسى المعلومات التي حفظتها خلال فترة الدراسة .. فلابد أنها مخزنة في دماغك .. وذهابك لخدمة العلم والجيش قد ينسيك إياها كلها أو أكثرها .. وعليك بدروس خصوصية للرياضيات واللغة الأجنبية وأي مادة صعبة.

أحضرت أولى الشاي حسب ما تعرف عن حب مال للشاي ، وأحضرت معه بعض المكسرات وسكبت الشاي وقالت : تفضل يا أبي

تناول موسى الكوب شاكرا برأسه ، وقبل مال المراهق الكوب ، وهو يقول : شكرًا أولى سنفتقد شايك

ـ البيت مفتوح لك.. سنبقى أصدقاء ، وستجمعنا القصص والكتب .. فأنت أخ كريم للعائلة وأخ لثاني .

قال مال : ماذا ستدرس الآنسة بعد النجاح يا أبا ثاني ؟

قال : كليه الآداب لغات فرنسي أو إنجليزي

قالت أمها : أنا أرغب أن تدرس إدارة أعمال .

قال مال : المحاسبة جيدة أو السكرتارية .. اللغات أتصور أجود يا عّم موسى .

قال موسى : الاختيار يعود إليها .. هي من سيتعلم لا نحن .. اللغات تعمل في الترجمة في الصحف في التعليم حتى في المؤسسات المالية .

ـ والأخ ثاني .

ـ يريد أن يدرس في كلية العلوم فيزياء كيمياء مدرس العلوم .

قال : أتمنى لهما كل توفيق .

قالت أولى : كنّا نتمنى مرافقتنا في الجامعة يا أخ مال .

قالت الأم : لن تفرق سنة إذا أعاد الامتحان

قال بضيق : النفس تعبت يا أم ثاني عن الدراسة .. أحبطت ولا رغبة للمعاودة هذه الأيام .

قال موسى : بعد حين سيذهب أثر الفشل .. وتعود لك الحيوية التي نعهدها فيك .. وتنشط للعودة والدراسة .. فأنت تمتلك الروح الإيجابية يا مال !

قال : أنت متفائل يا عمي!

قال : وأنت عليك أن تتفاءل ولا تحبط .. عظماء لم ينجحوا من أول مرة في المدارس ثم نجحوا .

ضحك مال قليلا وقال : عظماء.. يا إلهي!

قالت أم ثاني : لا تدع اليأس يغزوك يا مال .. كن كما تعودنا عليك .

قال: يبدو أن ثانيا سيتأخر .

صاحت أولى : اصبر يا صديقنا .. إنه قادم .. صدق أنه ذهب لشراء الحلوى لما علم أنك قادم

لزيارتنا .. فإننا محبوك ، ونعتبرك من أفضل الأصدقاء في السنوات الأخيرة .. ويحب الكل سماع أخبارك وأشعارك .

قال موسى: أما زلت تكتب القصائد ؟

تبسم الشاب وقال : استهواني الشعر زمنا .. اليوم هجرته ؛ لكن الآنسة تحب أن تذكرني بما كتبت لها أول تعارفنا بكم .. كانت تطلب مني قصائد لمناسبات معينة فأصدق أنني شاعر واكتب لها.

قالت أولى : صدق أن معلمة اللغة العربية أعجبت كثيرا من قصيدتين لك .. ولم تصدق أن هاوٍ ألفهما .

ضحك مال الدين وقال: أما أنني شاعر فلا ؛ وإنما معلمتك تلك لا تفقه في الشعر والأدب شيئا .

قال موسى بتردد : ربما ؛ ولكنك تكتب جيدا .. لقد قرأت لي أولى بعضا مما كتبت لها وراق لي .

قال بحياء : أشكرك يا عم موسى على لطفك مرة ثانية .. أيضا راق لي الرسم كما استهواني الشعر .. ربما يفعل الانسان ذلك متأثرا بما يقرأ عن أبطال القصص وقدراتهم الخارقة .. فبعضهم يفعل مثل هذه الأشياء

قال موسى : هكذا الناس يبدون بالمحاكاة والتقليد ، ثم الاحتراف يا بني .. لا يولد أحد شاعرا أو قاصا أو رساما .. ها هي أولى تحب رسم الخطوط والزخرفة العربية .. ولعلك تعرف عنها هذه الهواية.. فأولى يعجبها رأيك في كل شيء .. فهي تعتبرك عملة نادرة .

غرق مال ضحكا وقال : أنا وأولى نحب المطالعة ، هذا ما جمعنا أكثر .. نتبادل المعلومات حول القصص والروايات والمجلات .. أليس كذلك يا أولى ؟

ـ صحيح يا أبي .. ولكني أعجبت بك قبل أن أعرف هوايتك هذه .. فأنت قارئ جيد ومثقف .. ولاعب كرة يد جيد كما يقول ثاني .

قال موسى : ولاعب شطرنج ممتاز .. أعجبني لعبك يا بني .. لو تجد ناديا ومدربا ؛ لربما أصبحت بطلا في هذه اللعبة

قال مال : وماذا أفعل في البطولة يا عّم ؟! .. فالأفضل أن أبقى هاويا .. فحياتنا صعبة وشقاء وفقر ، وأمامنا العمل والجيش الاجباري

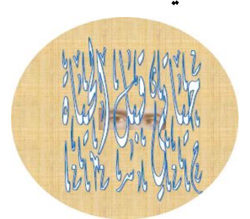
قالت أم ثاني : المهم الدراسة والثانوية يا مال .

حضر ثاني وجلب معه العشاء والحلوى ، ورحبنا ببعض عناقا .. فنحن رفاق المرحلة الثانوية .. وكرر مال المباركة ، وكرر الآخر المواساة ، فهما قد التقيا يوم إصدار النتائج منذ اسبوع ؛ إنما مال أحب أن يهنئه أمام الأسرة كلها ، ويبارك للآنسة أولى التي كانت تفخر بصداقته وصحبته لكل الأسرة ، وتفخر بصداقته لثاني .. وتجلس معهما في أوقات تركهما للدراسة والمراجعة .. وتسمع كلامه وثقافته ونشاطه .. وهو يسمع قصصها في المدرسة مع المدرسات والطالبات .. وبالمجمل يسمعان أفكار وأحلام بعضهما ، وتجمعهما هواية الكتب والقصص وتبادلها والتعليق عليها .

ولما انتهى الطعام والحلوى عادوا للجلوس في غرفة الاستقبال يشربون الماء والشاي من جديد . وكان ثاني ووالده يرغبان الشاب بتكرار الامتحان قبل الخدمة العسكرية الالزامية والجيش والتجنيد ، وأن الشهادة إحدى وسائل التقدم والمستوى الاجتماعي ، وأن الشهادة ليست هي مصير الانسان ، ويستطيع الانسان تحقيق الثروة والعمل من غير شهادة وجامعة ؛وإنما الشهادة مهمة في حياة المثقف ، وقد يعمل بها في الوظائف الحكومية وغير الحكومية .. وكذلك مواصلة الدراسات العليا كالدكتوراه للعمل في الادارة كدكتور أو جامعة .. وفي نهاية الجلسة دفعت أولى له مجموعة من القصص والكتب وقالت : لنبقى على تواصل ، وبيننا هذه الكتب .. فأنا أعلم شغفك بذلك .. ؛ ربما الجامعة ستبعدنا عن بعض أياما وشهورا .. فأرجو أن نبقى على تواصل واتصال ، وأن تبقى صداقتك لثاني ولي .. أليس كذلك يا ثاني ؟

هتف ثاني : بلى ، يا أولى .. فالأخ مال صديق كبير لكل الأسرة .. وعزيز على الجميع .. وبالتأكيد سنبقى زملاء كما كنّا خلال السنوات الثلاث.. يا مال فالبيت بيتك .. فأنت أخي كما أولى اختي .. فلا تخجل من زيارتنا رغم الفراق .

قال الشاب حياء : أنتم أغلى من الأهل يا ثاني ويا أولى .. لا أريد أن أدلل على ذلك .. فاحترامكم واجب وفرض عليّ .. وأنت نعم الأخ ، وأنت نعمت الأخت .. لا أنسى فضلكم وحبكم وتشجيعكم وسهرنا معا ، والحظ لم يحالفني وقد ضعفت الهمة .



التحق الشقيقان ثاني وأولى بالجامعة العربية الأول في كلية العلوم تخصص فيزياء ؛ ليكون معلم فيزياء .. فهو يحب التدريس ، وتعجبه مهنة المدرس ودوام نصف نهار .. وأولى دخلت الآداب لدراسة اللغة الفرنسية كما أحبت فهي معجبة بفرنسا والثقافة الفرنسية والأدب الفرنسي ؛ كأنها متأثرة بأدباء فرنسا .. وأنا أصرت أمي الغالية على قلبي أن أحاول مرة أخرى، وتكفلت بالمصاريف والنفقة على الدراسة الخاصة ، فسجلت اسمي في مدرسة خاصة بموقع عجيب في وسط المدينة قرب محكمة شرعية ، وحصلت على تأجيل خدمة الجيش الإجبارية لعام آخر .. فخدمة العلم لابد منها قبل الدراسة وبعدها .. فالكل ملزم بقضاء سنتين أو أكثر في القوات المسلحة الوطنية . لم استطع الاستمرار في المدرسة ، ضقت ذرعا وإفلاسا .. كرهت مقاعد الدرس ، وجدت نفسي غير قادر على الاستمرار .. لماذا لليوم لا أدري السبب ؟! لم استطع إكمال المرحلة الثانوية عام تسعة وسبعون فقررت أن اتعلّم فن التمديدات الكهربائية الخاصة بالمنازل والفنادق والفلل والمدارس حتى ينتهي العام الدراسي وألتحق بالتجنيد ..حسمت أمري أمام الملأ من قومي وخلاني في هذه الخطة .. الجيش أولا أخلص من الإجباري ثم عودة للثانوية .. لابد من التغيير ، وجدت تشجيعا من بعضهم ، وبعضهم رفض هذه الخطة ..التعليم أولا وهكذا ..وتلقيت رسالة من الصديقة أولى عزّ عليّ يأسك من الثانوية العامة يا مال الدين .. علمتك مقداما مثابرا .. لا أدري لماذا تضعف عن قراءة كتب المدرسة ؟! وأنت تقرأ عشرات الصفحات من الكتب والمجلات والروايات .. أليس هذا من العجيب ؟! .. المحبة

الغالي على قلبها أولى موسى .

فعلا هذا ما يحير كل من عرفني أيها الاصدقاء علقت القراءة والغرام بها منذ الفصل الخامس ، كنت أقرأ قصة الزير سالم والهلالية منذ الصف الخامس أو الرابع ؛ بل أذكر أنني اشتريت قصة المهلهل وأنا في الخامس الابتدائي الأساسي .. وقرأتها في ثلاثة أيام بخطها الصغير وصفحاتها الكثيرة ، وعلى قراءة سلسلة الألغاز المصرية التي أغرمت بها في المرحلة الإعدادية المتوسطة ، كنت أقرأ الكثير منها خلال الحصص في المدرسة.

كانت في طريق المدرسة مكتبة تؤجر هذه القصص ، فكنت أقف أمام المكتبة أقرأ لغزا لم أقرأه بقرشين على ما أذكر اليوم بأقل من ساعة ، ثم أستأجر عددا آخر لقرأتها في البيت ..كنت مستمتعا بذلك ..القراءة متعة ولذة لا حرمنا الله منها ، وما زلت لليوم محبا لها .. عجيب حبي للقراءة وكرهي لدروس وكتب المدرسة الثانوية رغم غرامي في المعرفة وكل المعرفة .

تعرفت على مجلة العربي الكويتية صغيرا .. كان ثمن العدد عندما بدأت أتابعها بثمان قروش وعشرة قروش .. كانت مجلة أنيقة وورقها أبيض مصقول من أجود الورق اللامع في ذلك الزمن .. كانت مجلة فاخرة .. وتعرفت على الكثير من مجلات ذلك الزمن سوبرمان الوطواط النجوم مجلة الشطرنج وكتب الشطرنج العراقية والمصرية .. وما زلت احتفظ بشيء منها ؛ وربما زاد .. وتعلمت لعب الشطرنج وافتتاحيتها ونهاياتها .. وكنت أذهب هناك وهناك للمباريات والتحدي .. أصابني هوس فيها .. وألفت كتابا صغيرا فيها .. وما زال مخطوطا بخطي الصعب القراءة ؛ ولكن لغة الشطرنج رموز وسهلة القراءة للمحب الولهان ، وشكلنا يومها نواة نادي شطرنج ، وصحبتني في رحلة التجنيد ، وفقدت رقعة أو حجزت في فترة التدريب الأساسي .

أما مهنة الفني الكهربائي فهي مهنة جميلة لمن أحبها وأتقنها، وعرف أسراها .. كانت أجرة العامل يوم عملت فيها خمسة وسبعين قرشا ؛ ولأني كنت أحمل شهادة توجيهي راسب أجرت دينارا واحدا في اليوم .. من الصبح حتى المساء بعد العصر.. تعلمتها خلال شهرين ، وكان بإمكاني العمل في ورشة وحدي .. وفعلا قد عملت ؛ لكن الانسان يحتاج للمزيد من الخبرة ،

الفكرة واحدة ؛ لكن الفن فيها يختلف ..يختلف التمديد في المنازل عن الفنادق والمدارس .. وربما أعطاني المتعهد الاول دينارا خجلا أقول ربما ؛ لأنه رفع أجور كثير من العمال .. عادة أصحاب الشغل يحبون إطالة فترة التعلم للجديد أكبر فترة من الزمن .. بعض المعلمين الذين عملت معهم أسرعوا في نقل خبرتهم لي ؛ ربما محبة أو غير ذلك .. والله أعلم .

السبب أن الفني إذا تعلم الحرفة بسرعة سينتقل للعمل معلما وبأجرة أكبر .. فالعامل اجرته بسيطة وقليلة بالنسبة للمعلم المتقن .

كان عليّ أن أتعلم قبل التجنيد والوقت يداهمني .. الموعد مع الجيش في شهر أيلول عام ثمانين .. لم يكن العمل غريبا عليّ .. كنّا في عطل المدارس السنوية في الصيف نعمل .. وقد عملت في مهن مختلفة مع المعارف ، وحتى في البيع المتجول كالحلوى والبالة والتحميل والتنزيل للرمل والطوب والبلاط والاسمنت ، وفي أماكن مختلفة في المدينة وحتى الفواكه والخضار في أماكنها والأسواق الكبيرة .. الواحد يحتاج لمصروف والشراء للدخان والتبغ ..قصة كبيرة عطلة المدارس .. فقد كنّا نرفع المواد للطوابق لمعلمين البناء والقصارة والبلاط وغيرهم عملت في حدادة البناء والنجارة وتنظيف الخشب من المسامير وفك الطوبار مع عدد من المعلمين شقاء في شقاء ؛ لكننا كنّا شبابا على قدرة على إنجاز مثل هذه الأعمال .

كان من نتيجة مثل هذه الأعمال الجلوس في المقاهي للتعاقد مع معلمي مثل هذه المهن .. وكان من نتيجة الجلوس فيها لعب الورق والشدة والتعلق بالدخان والسينما والرياضة .

لم يكن العمل في هذه المهن والحرف مستمرا ،كان متقطعا لم يكن دائما .. كان يخضع لعوامل وظروف شتى .. كنّا نعمل حتى نعود للمدرسة والعام الدراسي من جديد .. بعض الشباب يقضون تلك الأيام في النوادي والمسارح وغيرها .. نحن بحاجة لمصروف أثناء انقطاع المدارس ..كم هو قاس الفقر والطفر !

رغم هذه الآلام ما زلت أقرأ وأقرأ .. إنني مفتون بالقراءة . كنت أجلس ورفاقي في مقهى وسط المدينة ، مع جلوسي وتعرفي على عشرات المقاهي في أنحاء العاصمة إذ أنا من سكان العاصمة

كما يقال .

عرفت مقاهي الحي والأحياء المجاورة ؛ لكن مقهى الذهب في سوق الذهب هو المقهى الأهم يومها .. مقهى الشلة والرفاق واللعب والعنوان .

لم نلعب الميسر من يملك يدفع .. تعلمنا عشرات الألعاب من ألعاب الكوتشينة بأسماء كثيرة .. ألعاب كثيرة.. اللعب أيام الشباب له مواسم.. كنّا نستمتع بكرة القدم لعبا ومشاهدة حيث كان فريقان يشغلان تنافسنا ومجادلاتنا ومعاركنا وصراعنا .

لم تعد تتصل بنا يا مال ! فشقيقي ثاني حبيبك يقول :إنه لم يعد يراك .. لا تنسى ثلاث سنوات صداقة جمعتنا .. لديّ قصص وكتب كثيرة تحتاج إليك أكثر من الأول ؛ لأنني طالبة جامعة ، حتى ابنة عمي تسأل عنك.. فقلت لها مع رسوبك هربت من الحي .. ولم تعد قدماك تدخل حي درب القلعة .. المخلصة أولى .

أجبت برسالة أشكر اهتمامك أنت وعزة بشخصي .. كانت مثلك تحب لي النجاح .. حاولت الدراسة من تشجيعكم ، ولكني ضعفت وغادرت المدرسة بعد أن دفعت الرسوم وبعض الاقساط .. إنني أعمل وأستعد للتجنيد .. فموعدي شهر أيلول ثمانين .. نعم شهر أيلول الموعد يا أولى .. أحب رسائلك وكلماتك ونصائحك .. ألم تجدي صديقا بعد في طلاب الجامعة ؟ .. يقولون الجامعات مرتع لقصص الحب والغرام وغير ذلك .. المخلص مال الدين حسين .

كتبت بعد حين لا يا صديقنا ، بعدي لم أجد أو اتخذ صديقا محبا عاشقا مع أن بعض الفتيات تنقلن خلال هذه الشهور بين أكثر من حبيب وصديق .. هناك أحدهم يحاول يحوم حولي ؛ لكن ثقافته ضحلة .. وأتعجب كيف نجح في الثانوية وأنت رسبت؟! صديقك جل وقته مع الفتيات والحبيبات كما يحدثني .. أتمنى لك التوفيق ؛ ولعل الجيش يضيف لك تجربة جديدة ومفيدة وتستمتع به؛ لعلك تزورنا قبل التحاقك بالجيش .. فسأطلب من ثاني أن يدعوك لتناول العشاء والطعام مع الأسرة ..وأخيرا لثاني صديقتان في الجامعة لحتى الآن .. لا أدري من تكسبه وتفوز به ؟ أمي كما تعلم تخاف من الفتيات وألعابهن مثلك تماما .. لم أعد أسمع أخبار فتاتك

نهلة ..المشتاقة لكم أولى .

كان لابد من الرد أدبا كما هي يا أولى ..تحضر في الصيف مع أسرتها من الخليج.. فوالدها حسب ما أعلم يعمل في تلك البلاد .. ولا أدري ما يعمل ؟! فأنا كما أخبرتك شفويا عيوننا فقط التي تحب بعضها.. لم أكتب لها ، ولم تكتب لي ؛ لكنها عندما تراني أقف قرب بيت عمها حيث ينزلون لقضاء إجازة الصيف تخرج لتبادلني العيون والهوى .. هذا حبنا إذا سميته حبا .. فهي تبدي اهتماما بي .. أنا أفهمه والعشاق يفهمونه .. ولكني عذري الهوى على رأي بعضهم .. أنا رأيت بعض حب المراهقين والفتية من الجنسين رأيتهم أثناء لقاءاتهم وجلساتهم التي يسمح لي بالقرب منها كحارس أمين فأرى حبهن وشوقهن .. وما هو بحب ! الكل يتسلى ببعض ؛ فإنهنّ عند أول طارق يتزوجن ويختفين من وجوهنا .. هدفهنّ التسلية بالشباب .. ولم يعجبني هذا السخف .. شكرًا لرسائلك اللطيفة .. لعلي أزوركم قبل السفر إلى معسكر التدريب .. فقد قمت بالفحص الطبي ، وعين شهر تسعة أيلول الشهر التاسع من العام ثمانين لدخول المعسكر .. لعلنا نلتقي .. سلمي على والديك وإخوتك سلام كبير .. المخلص مال الدين حسين .

فعلا قمت بإجراءات الالتحاق بمعسكر التدريب كمجند لمدة عامين ، قمت بالفحص الطبي المقرر ، وتعين يوم الاجتماع في منطقة من المدينة فلا أذكر اسمها اليوم ؛ لكنها في المدينة الكبيرة . ودعت الأهل والعمل ؛ ولعلي كنت أملك بعض المال ، ولا أذكر قيمته وعدده ، ولما أعلن عن اسمي صعدت لحافلة عسكرية سيارة كبيرة معدة لحمل الجنود والطعام والذخيرة ، قد تكون علامة للخشونة العسكرية .. ولما اكتمل العدد المطلوب للشاحنة تحركت بنا جهة معسكر التدريب حيث يتسع المعسكر المقصود عشرات ألوف المجندين في البلاد .. وهو في قلب الصحراء وعادة كل أربعة شهور يستقبل المعسكر دفعة جديدة من المجندين .. السنة تستقبل فيها ثلاث دفعات على ما أذكر .. كنت من الدفع الأولى بعد العاشرة .. المهم دفعة شهر أيلول عام ثمانين .

وصلنا المعسكر مع الليل أول الليل ، كان الاستقبال في المعسكر الصحراوي الضخم من قبل الجنود الأقدم والضباط وضباط الصف ،كل ثلاثين مجند ضمن فصيل .

الفصيل يسمى فصيل مشاة لأخذ دورة أساسية أولية .. بعد الوصول يذهب بنا إلى الحلاق ليحلق رؤوسنا على نمرة صفر زيرو بواسطة ماكينة كهرباء .. ثم يصوروننا لإخراج بطاقة عسكرية ورقم عسكري لمجند بدون رتبة عسكرية مكلف عسكري اجباري.. ثم يستلم المجند ملابس وثياب عسكرية بدلات كاكي تسمى فوتيك ، وملابس مراسم للمغادرة والخروج من المعسكر حالة الإجازة ، ملابس داخلية جوارب جاكيت عسكري فلدة .. معطف شتوي للوظيفة العسكرية ليلا ، ملابس صوفية للبرد والشتاء .. بوريه غطاء رأس شعارات معدنية عليها اسم الجيش والشعار المعدني المعلق على البوريه .. حذاء طويل الساق للتدريب وآخر للإجازة .. علب طلاء أسود لتلميع الحذاء .. صندوق معدني لحفظ الملابس .. بطانيات وسرير وكوب للشاي والماء وصحن للطعام ومعلقة وربما أشياء أخرى غابت عن ذهني .

الحمام جماعي كحمامات المساجد .. عدة مراحيض خارج ثكنة المنامات .. الثكنة العسكرية تتسع فصيل كامل .. وكل عدة فصائل تعتبر سرية ومجموعة سرايا تشكل كتيبة وهكذا ثم لواء فرقة جيش .

للمجند ثلاث وجبات يوميا في الصباح مع شروق الشمس عند الظهر وفي الغروب ثالثة ، وبين الصباح والظهر وجبة على نفقة المجند يشتريها من دكان ومطعم الوحدة أو تجلب من الخارج عن طريق أحدهم .. ويباع في المعسكر في دكان الجندي الكنتين المعلبات والسجائر والحلوى الرخيصة وهناك نادي وتلفزيون وشراء الشاي وغيره .

وهناك حلاق وكوّى .. ويبدأ التدريب صباحا حتى الظهيرة ثم حصة تدريب عصرا يوميا ما عدا الجمعة.. وهناك عيادة أولية .. الدورة هي لياقة بدنية والطابور العسكري والمشية العسكرية وألعاب رياضة المشي .. وهناك عقوبات بدنية ووظائف حراسة ليلا غفارات تسمى .

حلق الدقن واللحية فرض كل صباح ، وكذا ترتيب السرير وتصفيط الأغطية البطانيات يوميا

ما عدا يوم الجمعة وقبل المغادرة للتدريب أو الإجازة .

كثيرة الطوابير على المراحيض والمغاسل على الطعام والتدريب وكل شيء. يمضي الشهر الأول بدون إجازة للمجند إلا من كان له واسطة أو مات أحد والديه .

يدرب المجند على بعض قطع السلاح ، وأهمها بندقية فردية فكا وتركيبا ، ويتدرب على تنظيفها وتلميعها وعلى بعض الأسلحة الأخرى والقنابل اليدوية .. والرماية الحية لعدد من الطلقات في آخر الدورة التي تحتاج لثلاثة شهور ، ثم ينقل المجند بعدها الى وحدات متنوعة من الجيش في طول البلاد وعرضها حسب الحاجة والثقافة والمستوى العلمي .. كانت دفعتنا أول دفعة تحتوي عددا كثيرا من المتعلمين في الغالب .

الحراسات الليلية التدريبية يتعرض فيها المجند للتفتيش من قبل عرفاء الفصيل ومن ضباط الصف ومن الضباط في بعض الأحيان.

يدرب المجند على استخدام القنابل اليدوية وسحب الصاعق وقذفها على مكان معين ، وعلى مدفع الهاون وعلى المدفع المحمول على الكتف لتفجير الدبابات والناقلات والاليات العسكرية وأغلبه تدريب نظري .

كل التركيز على المشية العسكرية يد يمين مع رجل يسار والالتفات يمين يسار . بعد الشهر الأول من الحجز والتدريب يسمح للمجند بإجازة نهاية الاسبوع بعد ظهر الخميس لصباح السبت .. والبعيد ربما يعطى يوما آخر كل أسبوعين .

يغادر المجند المعسكر بواسطة حافلة عسكرية لأقرب مدينة كبيرة ، فينام ليلة الجمعة وليلة السبت ويسعى صباحا لمعسكره أو لمكان معين .. وتأتي سيارة عسكرية لنقله للمعسكر الكبير في جوف الصحراء القاحلة .

والعسكري يجب أن يتناول وجبة الغداء يوم الخميس قبل مغادرة المعسكر بثيابه الرسمية .. فلكل عسكري وجبة طعام مخصص حسب برنامج ما.

ولكل سرية نادي عسكري ، ومطعم للطعام والسهر والسمر يسمى كانتين .. وله ميس ودكان

وفي النادي كراسي وتلفزيون ويعرض برامج ميكي ماوس .. والمعسكر له وقت يتوقف فيه التيار الكهربائي عدة ساعات .. وعند الفجر تعود الكهرباء ، ويبدأ صحيان العساكر ، ويبدأ النشاط بحلق اللحى والذهاب لدورات المياه ، ثم تلميع البسطار والشعار العسكري المعلق على البوريه ، والاستعداد لطابور الافطار ، ثم الانطلاق لميدان التدريب .. وبعد حين شهر يقل التدريب المسائي .. ويسمح بلعب كرة القدم وغيرها .

وكونت نادي شطرنج رغم أنها غير ممنوعة حجزت لنهاية الدورة ، ثم انتقلت ، ولم تعد إليّ الرقعة ولا القطع .. وأحيانا يقام طابور ليلي أو عند الغروب كتدريب مفاجئ أو عقابي حتى يتعلم المجند الخضوع والضبط العسكري .

ثلاثة شهور متتابعة في ذلك التدريب ، ثم يتخرج المجند ، ويرسل إلى وحدات الجيش المختلفة .. وألحقت بكتيبة اتصالات لاسلكي وسلكي في الشمال حيث الحدود كمجند إشارة واتصالات .. سأتحدث لك يا أولى عن أسلحة الجيش ؛ لأني كتبت هذا الكلام لصديقتي أولى فهي تحب ذلك كما أحس وأشعر .. واعترفت لي باستمتاعها بأي حديث أتكلم به .. واستمتعت في قراءة تلك الصفحات .

كنت مستعيرا لصندوق بريد من أحد رفاق الحي في وادي النزهات المجاور لدرب القلعة ، وقد كان السبب اشتراكي بمسابقة شطرنج عن طريق مجلة الشطرنج ، وهي اللعب مع ثلاثة آخرين بالمراسلة على ما أذكر ولمدة محددة من الزمن .. شطرنج بالمراسلة نقلة إرسال نقلة استقبال .. أذكر أنني فزت على اثنين والثالث انتهى الوقت المحدد .. والمفاجأة أن أحدهم بعد انتهاء الدور كان أحد طلبة المدرسة أحد الشعب الأخرى .. ورفضت الالتقاء به بعد انتهاء الدور .. ونشرت النتائج في أحد الأعداد .. وما زلت أحتفظ بوثائق ومسودات تلك الأدوار البسيطة .. وأنا ألفت كتابا قبل الجيش في الشطرنج ولعبها وقراءة أدوارها .

واحتفظت بصندوق البريد إلى حين ، وأستلم رسائل أولى عليه أثناء دراستها في الجامعة .. فكنت أستغل فرصة الإجازة لقراءة تلك الرسائل الجميلة والمثيرة .. كانت تكتب لي من مقاعد

وحدائق وساحات الجامعة .

كتبت لي رسالة جاء فيها صديقي البطل مال الدين حسين حولي شباب رغم حبهم لي كما يزعمون ويدعون أنا غير مقتنعة بهم .. وأحدهم يزعم أنني فتاته المنشودة والتي كان يبحث عنها خياله من سنوات ؛ بل كلهم يقول ذلك .. وهل يصدق هذا الزعم ؟ صديقي أنت الوحيد الذي اقتنعت بما يحمل من أفكار ومعتقدات رغم هروبك الى الجيش والصحراء الحارة المليئة بالغبار والرمال لم أميل لأحدهم ما رأيك بصحبة هؤلاء الطلبة العشاق ؟ وأخي ثاني محتار في اختياري لأحدهم .. وطلب مني أن أخذ رأيك ومشورتك بتلك الصداقات .. وأنت لم تعد تزورنا منذ دخلنا الجامعة ؛ كأن لم يكن بيننا صداقة وزمالة وساعات رائعة .. نعم صداقتنا لم تنقطع ماذا أفعل صديقي بهؤلاء الفرسان ؟ قل لي أيها الصديق المخلص .. أنا على يقين أنني لن اتزوج أحدهم ؛ لأننا من جيل واحدة سن واحدة .. وأمي لها قريب يكبرني بسنوات مستعد وجاهز ؛ ليكون لي زوجا .. وهو من أقاربها وتريد فعلا تحقيق ذلك قبل أن أتورط بعلاقة فاشلة مع أحدهم .. تراه مناسبا ..ولكنها فترة الجامعة يا مال .. وتقول إن أبي يقبله ولا يمانع إذا قبلته وترك الأمر لي ، ولم يتحدث معي بذلك وهذا طبع أبي .. أليس هذه معضلة ؟ عندما تأخذ إجازة وتقرأ هذه الرسالة زرنا .. فالبيت ينتظر زيارتك .. ويعرف أهلي عمق ما بيننا من صداقة وانفتاح .. وإن رأيك أفضل من رأي ثاني .. فأمي سمحت لي بدعوتك ومشاركتك بهذا الكلام .. أمي تحبك كما تعلم .. وترى نضجك وعجبت من فشلك في الثانوية.. وترى أن ظروف صعبة حدثت لك ، ولم تكشفها لنا .. أمي لولا السن المتقاربة بيننا يا مال لشجعتك على الاقتران بي لشغفي بك وبكلامك أيام مراهقتي التي لم تنته بعد .. وأنت تعرف ذلك ، وسمعته أكثر من مرة من أمي .. فأمي تزوجت أبي عن حب تقول .. فهي تحبك مثلنا .

فكتبت لها أن لا تتعمق بحب طلاب ، فهذا لا يقوم على أساس متين .. رغبات ثم يبحث عن غيرها ؛ لعله في سنة أخرى يرى فتاة أخرى فيتحول إليها .. فالجميلات كثيرات والصائدات العابثات أكثر ؛ فإذا رأى أجمل منك سينقلب قلبه إليها .. لا أساس سليم لهذه العلاقات ..

الاختلاط بين الجنسين والمراهقين مضلة كبيرة .

وأما الزواج من قريب أمك فقد يكون مبكرا .. أنت في السنة الثانية أليس كذلك ؟ فليتنظر إلى ما بعد الجامعة أو قرب انتهائها صديقتي .. فليس الزواج أثناء الجامعة مفيدا خشية الحمل والولادة وتعطل عن الدراسة ، وهناك الرضاعة الطبيعية أفضل من رضاعة القنينة هكذا كتبت لصديقتي بعد تخرجي من الدورة الأساسية للمشاة .. وعندما رحلت لصحراء جديدة حيث وحدة عسكرية للخدمة باقي سنوات الخدمة في سلاح الاتصالات السلكية واللاسلكية كتبت لي.

أنها ترغب أن تعيش قصة حب ، فالشاب يستهويها وهو يعشقها بشدة كتبت لها الفشل صعب خاصة في الحب ، فقد يكون صاحبك هذا عاشق جسد .. وما هو لعاشق روحك كتبت كل الفتيات لهن أكثر من صديق ، ويتحدثن عن علاقات بريئة ، فكتبت لها أي براءة في عشق جامعة؟ هل الشاب مستعد للزواج منك عند التخرج أم سيعمل حتى يظفر بك ؟ وكم سيستغرق وهو يجمع المال يا أولى ؟!

كتبت أني أقسو عليها

كتبت أنا أمنعك من التهور .. والأمر إليك .. وأنت طلبت مشورتي ووعدتها بلقاء مباشر عندما يروق لي الجو ووعدتها أن يكون قريبا .

أنا أعلم أن أمها تحبّني ، وتراني صديقا حقيقيا للعائلة الكريمة .



سوق العمل والتدريس

أمضيت أكثر من سنة في خدمة الجيش الوطني ، وقررت في أول إجازة أن أزور بيت صديقي ثاني وشقيقته أولى ، كانت أولى وشقيقها يقتربان من إنهاء السنة الثالثة من الجامعة .

كان اللقاء بعد المغرب ، وكان يوما ماطرا ، لم يتغير رقم هاتف منزلهم الذي أحفظه منذ بدأت صداقتنا قبل خمس سنوات تقريبا ، رحبت بي أم ثاني ، وطلبت مني العشاء معهم ، فلهم أكثر من سنتين لم يروني جسديا .

حين دخلت درب القلعة عادت بي الذكريات لإيام الثانوية والصداقة وبدايتها .. ذكريات جميلة .. تعشقت عبير تلك الأيام والليالي والسهر مع ثاني وأسرته ، وجلسات أولى الأدبية وغير ذلك .

وقفت أمام بوابة البيت لأضغط على زر الجرس الكهربائي .. فكرت كم ضغطت عليه عدد كرات ليلا ونهارا وصيفا وشتاء . . لما ضغطت فتحت أولى البوابة .. كانت جميلة كما تعودت على أناقتها دائما .. كانت تحب الجلوس معنا بملابس الخروج قليلا ما جلست معنا بثياب المهنة أو المنامات .

كانت جميلة تلك اللحظة ؛ كأنها عروس ترحب بزوجها ، وتسريحة شعر وعطر بين فواح يضرب الأنف سريعا .. فتحت البوابة فرحة وسعيدة بي شعرت بذلك ، ورددت البوابة لأسمعها تهمس باضطراب قبل التحية :كم أنت قاس يا مال! سنتان ولم تضغط على هذا الجرس .

دخلت البوابة وأنا أقول بعشق ووله :تحياتي .. الدنيا صعبة سلام عليك .

ـ وعليك السلام يا حبيب !

تصافحنا كما تعودنا وفاجأتني بأن ضمتني لصدرها ضمًّا عنيفا ، وتأوهت وارتجفت وصعقت .

قالت : لا تخف إنني أحبك.. أنت أخ عزيز وصديق غالي .

قلت مذهولا : يا إلهي !ماذا فعلت يا ابنة الكرام ؟

ـ أحبك أحبك .

ـ وأنا أحبك إنك عزيزة على قلبي ولكن ...

ـ لا تخف .. لن أتزوجك .. فأنت تحترم الأسرة .. ولا تحب أن تبدو خائنا .. أعرف هذا وحفظته .. ونحن من سن واحدة .. فنحن أقوى من الزواج .

ـ ماذا ستقول أمك وهي تنظر إلينا ؟!

ـ لن تقول شيئا .. لن تفعل شيئا .. هي تعلم كم أحبك وأرغب فيك شريك حياة .. وكما تقول لو لم تكونا قريبا سن لكنت أولى الناس بالزواج مني .. هكذا تَر أمي المانع السن .

ـ العاطفة قوية عندك نحوي يا أولى!

ابتعدت عن صدري بعد كل هذه الهمسات ، وأخذت يدي وقبلتها ؛ وربما تمنت تلك اللحظة لو قبلت شفتيها .. فهي تعلم حبي لها ؛ كأنها تقول ذلك ؛ ولكنها تعلم حيائي من أمها .. فهمست دون وعي : حبيبتي ! آه !! ليتني أحبك .

وقلت لنفسي وهي تداعب وجهي : هل جنت أولى ؟ فهي لم تفعل ذلك معي من قبل .

ولما زلفنا للداخل قبلتني أمها من وجنتي كما كانت تفعل قديما وقالت : أهلًا بالفارس مال الدين .. قلبك قاسي علينا .

قبلت كفها وقلت : أبدا أبدا أيتها الخالة الغالية ! إنما الحال تغير بعد الثانوية ..كان الفراق اضطرارا كما تعلمين .. انتهت الدراسة بفشلي ، ونجاح أولادك .. وغدا سيتزوج ثاني وأولى وأنا .. أليست هكذا الدنيا يا سيدتي الكريمة ؟

ـ يا لك من فيلسوف .. نعم ، هذا المصير .. كيف أنت والتجنيد ؟

ـ في خير حال .. مستمتع به .. لقد أنهيت دورة اللياقة والمشاة ودورة الاتصالات والشيفرات العسكرية .. وانتقلت إلى وحدة مقاتلة في سلاح الدبابات والفرسان أو الدروع كما تسمى اليوم .. أين الرجال ؟

قالت أولى وهي تنظر إليّ بشغف بين: أبي عند أمه ومعه أفراد الأسرة .. ويعتذر لك .. ولتعلم

أن أمه مريضة .. وثاني سيأتي فهو مع صديقته في المسرح .

ـ إنه يعلم بمجيئ .

قالت :كلنا يعلم أيها الغالي والجافي .. هو يعلم بالتأكيد.. ألم ترتب معه قبل الاتصال بنا ؟ ولكن موعده مع تلك الفتاة مرتب له قبل اتصالك وسيجمع بين الامرين مسرح وحب ومال .

قال متهكما: من صديقته اليوم ؟!

ضحكنا الثلاثة وردت أولى : كثيرات يا حبيبي حسناوات أخي كثيرات .. وأنا دون حبيب حتى الشاب الذي حدثتك عنه طار من برودتي كما يقول .. قد وجد من تعشقه وتحبه كما يزعم .. فارقني .. كم شكرتك من قلبي عندما ذكرت لي سوء حب الجامعة والتقلب ! كان يراني الأولى في حياته وهواه .. وأمي تعلم بنصحك وتعلم بمثل هذه الحكايات .. والحق أننا نحب مثل هذه الأشياء يا مال ؛ لكنك دائما في خيالي محذرا .

قلت : الحمد لله على صبرك .. هؤلاء الشباب يحبون مثل هذه الصداقات العابرة والعلاقات الطيارة .. فأنا أسمع قصصهم وضحكهم من قلوب العذارى .. ألم يقل شوقي : خدعوك بقولهم حسناء والغواني يغرهنّ الثناء؟ .. نسمع بقصص الحب والغرام والهوى أسهل كلمة تقال أحبك .

قالت دون تمهيد : من أجل ذلك ضممتك لصدري وتنهدت ؛ لتسمع خفق قلبي لك .. أنت أحسن حبيب ..أنا أقر بذلك أمام أمي .. تراك أمي خبيرا في فهم البنات .

نظرت لأمها بخجل واضطراب التي ابتسمت لي ولم تنطق وقلت: مما أقرأ وأقرأ .

لما قلت ذلك قالت أمها: أنت تحسن القراءة والتدبر يا مال .. فكلنا يقرأ ..قراءة عن قراءة تفرق .. منذ وعيت وأنا أقرأ الصحف اليومية والجرائد ، وحتى لما تركت العمل ظلت عادة تصفح الصحف والمجلات النسائية هوايتي .. وفيها عرض الكثير من المشاكل والحلول المقدمة لإصحاب الحاجات وطالبي النصح والإرشادات .

ولما سكتت أم ثاني عدت أسأل عن أفراد الأسرة فقالت : يزيد مع أبيه كما قلنا وعلا عند صديقة

لها تدرسان ..فهي في نهاية العام الجامعي الأول .

صحت : يا إلهي ! الأيام تمر من بين أيدينا بسرعة .

قالت أم ثاني : سنتعشى ، ولن ننتظر ، فقد سمحوا لنا بذلك .. هيا إلى غرفة الطعام

قال مال : أستطيع الانتظار يا سيدتي !

اجابت : ولماذا الانتظار ؟! موسى سيتعشى مع والده وإخوته .. وثاني قد يتعشى مع رفيقة المسرح الآنسة منايا .

قلت : هذا اسمها !

قالت : نعم ، هذا اسمها .. منايا

ـ حسنا يا سيدتي !

قالت أولى : سنتعشى يا مال ثم نجلس وحدنا على انفراد .. بيننا حديث طويل .. أرجو ألا تتردد .. وسيكون الباب مواربا ، قد تسمعنا أمي ، وقد لا تسمعنا .. هذا يعود لها .. الحديث حول مشاكلي وزواجي من مازن قريب أمي .. بيني وبينك فأنا أحب أن أسمع كلامك وحدي .

نظر لأمها وقال : الخلوة خطرة يا أميرة أولى.. أليس كذلك يا أم ثاني؟!

ـ كأنك شيخ يا مال ، الخلوة هذه عند المتدينين .

قالت أمها : هي تريد ذلك .. وأنا أعرفك أزعم جيدا يا مال .. سأكون في الصالون .. وقد أسمع كلامكم .. فهي تريد رأيك في موضوع مهم وخطير .. وقد أدخل عليكم بين الفينة والأخرى بشيء.. أنت ابن ثالث لي

قلت بخجل شديد : ما أخطر هذا الكلام يا أم ثاني !

قالت : نحن جربناك وأنت في سن المراهقة ، لم تختلس قبلة من أولى رغم اعجابكما ببعض .. وابنتي تحب رأيك في أمورها الخاصة .. ومن إعجابها بك كنت أظن أن بينكم علاقة خاصة ؛ ولكن أولى نفت ذلك .

قلت : لم أكن أسمح لنفسي بالخيانة .. أنتم فتحتم لي قلوبكم قبل بيوتكم .. فأنتم أعز الأهل والأصدقاء .. والأيام دلت وأكدت ذلك .. فلن أجرؤ على خيانتكم .. لا أذكر أني قبلت أنثى باسم الحب والصداقة .. أنا عشقت الحب العذري إذا كان هذا صحيحا .. لم أقبلها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها .. كما زعم زوج ليلى لقيس بن الملوح العاشق المشهور .. وأولى وثقت بي .. فلم يحدث أن قربت يدي لشيء منها ولو مازحا .. لم يحدث سوى المصافحة .

قالت : هذا ما تأكدت منه.. وأنا أثق بأولى خاصة تلك الأيام يا صديقنا .. أما أيام الجامعة فهي مسؤولة عن نفسها .. أنت رائع! ومن يعرفك يعجب بك ويحبك بحق .. ألم تعانق فتاة في حياتك ؟

ـ لم يحدث يا سيدتي هذا إلا اليوم عندما فاجأتني الفاتنة أولى بذلك على الباب إذا كنت تشيرين إلى ذلك ..وهي ترحب بي .. وكان ذلك مفاجأة

ـ وأنا تفاجأت مثلك برغبتها .. وأنا سمحت لها بذلك .. قالت أنا مشتاقة لضم مال إلى صدري إني أحبه فقلت افعلي .

تفاجأت حقا من صراحتها فقلت : يا إلهي! ألم تخافي من ردة فعلي وضعفي؟

ـ ماذا ستفعل ؟ أنت في الهواء .. وأولى ناضجة ، ولو تريد الخيانة لفعلت ذلك .. فحولها شبان كثر .. زملاء كثر .. وهي تسمع نصحك.

تبسمت لهذا الحوار وقلت لأولى: ألم يقبلك أحد ؟

قالت : حدث مرة واحدة دون رغبة مني ؛ ولكني أبعدته واحتقرته ، وقضيت يومين أبكي ، وأمي تهون الأمر عليّ ، تعلمت أن أكون لرجل واحد وهو زوجي .

قالت أمها : نحن في عصر عجيب يا مال .. ماذا يفعل الأهل أمام هذا الانفتاح الإباحي الرهيب ؟! القصص والصور والأشرطة والسينما والتلفزيون والرغبات والشهوات ، ونحن أسرة غير متدينة ، وأنت تعلم ذلك ، لست غريبا عن عاداتنا .. فزوجي يشرب الخمر من قبل أن أتزوجه وعلمني على شربها .. وهو لا يحب ذلك للأولاد يقول لهم لما تكبروا افعلوا ما شئتم .. هو لا

يشرب أمامهم .. نفعل ذلك في حجرة نومنا ؛ ولكنه أحيانا يكون سكرانا أمامهم .. وأحيانا اضطر لشرب القليل من سوء رائحتها كالدخان تعلمته منه .

قالت أولى: أمي دعينا من عيوب أبي .

ردت : مال اليوم كبير .. وكان يسأل ثانيا عن ذلك قديما .. كما قلت نحن لسنا أسرة متدينة ومتزمتة .

قلت مرددا مفكرا : متدينة ومتزمتة.. نعم ، ماذا يعني هذا ؟!

قالت: أنا أسأل عن هذا .. أنت الذي عليه الإجابة يا مال.. أنت تعرف في الدين أكثر منا لقد سمعت بعضا من أحاديثك لثاني أيام الثانوية عن الأحزاب الدينية .. أما زلت تذكر ذلك ؟

ـ نعم ، وما زلت أصلي أحيانا وأصوم كذلك .. أنا من أسرة متدينة كما الكثير من الأسر .. تدين تقليدي يا أم مال ؛ لذلك أفعل ذلك .. وأترك ثم أعود ، ولا أعتبر نفسي متدينا وملتزما .. وأعتبر نفسي إلى حد ما مصليا .

نهضت قائلة : حسنا ! هيا إلى العشاء طال الحديث .

قالت أولى : حبيبي ـ وهذا لفظ دارج بينهم ـ قالت : حبيبي مال الدين اسمك مثل أسماء الباكستانيين مال الدين حسين الدين

تبسم ورد : ربما أحد أجدادي منهم يا عزيزتي .

ـ ما أجملك ! تسخر مني !

ـ صدقي لا أدري .

دخلوا حجرة الطعام المعروفة جيدا لمال ، وضعت المائدة وانشغل مال أثناء الأكل يفكر بما سمع هذا المساء ، وعن سبب غياب الرجال وحتى باقي أفراد الأسرة ، وعن هذا اللقاء المرتب ، لم يأكل كثيرا ، وفعلوا مثله ، ولما انتهى الأكل ، ورفعت الأطعمة.

قالت أم ثاني : سأدخل المطبخ لغسل الأواني يا أولى خذي راحتك مع مال .. ودعي الباب مفتوحا كما اتفقنا .

ذهب مال بصحبة الفتاة إلى غرفة من غرف البيت إلى حجرة جلوس ؛ ربما استخدمت يوما في الدراسة ، وتركا الباب نصف فتحة .

قالت بعد الجلوس قبالة بعضهم : دخن إذا أحببت ـ ووضعت أمامه منفضة سجائر ـ فهي تعلم أن الشاب يدخن من أيام الثانوية .

فاستأذن بإشعال سيجارة فقال : شكرًا أولى.. ما الأمر ؟ الجو غريب الليلة .. ولماذا هذا الاستقبال والاجتماع ؟

حدقت للحظات بعينيه وقالت : نعم ، أنا تصرفت معك هذا المساء تصرفات غريبة تصرفات مراهقة .. سأفسرها لك .. أتسمح لي بالدخان ؟

قدم لها سيجارة وهو على استغراب ؛ لأنه يعرفها أنها لا تدخن .

فقال : لعل الجامعة علمتك التدخين مع الدروس .

ابتسمت وقالت :فأفعل ذلك في بعض الأحيان .. أتسول سيجارة من أبي أو إخوتي وبعض الزميلات .

ـ حسنا .. أنا مصغ لفاتنتي .

قالت : أنت دخلت بيتنا منذ ست سنوات أليس كذلك؟

ـ بلى ، منذ تعرفت على ثاني في المدرسة الثانوية ، واتخذنا بعضنا رفاقا وزملاء ، ثم تعرفت على الأسرة .

قالت : ومع ذلك لم تحاول مغازلتي كما يفعل الشباب .. لقد اعتبرتني كأخت حقيقية ، مع أنني كنت أجلس بينكم في ملابس البيت .. وقال لك ثاني أمر عادي إنها كأختك .

قال : وأنا اعتبرت ذلك حقيقة يا أولى .. ويجذبنا حب القراءة والهوايات المشتركة .. وأنت لم تحاولي مغازلتي .

ـ بل حاولت ؛ ولكنك تجاهلت ذلك ؛ وافترضت فيّ البراءة والعفوية .. أنت تعرف أنني أحببت أن أكون لك حبيبة غير الصداقة .

قلت معترفا لا مجال للكذب : أعلم ؛ ولكن ثقة أمك وأبيك بي منعتني من ذلك .. وتطورت تلك النظرات والاشارات وتجاهلتها .

ـ أنا كنت أختبرك لما تجاهلت حبي ؟

ـ وهل نجحت في امتحانك ؟

ـ جدا ، وأصبحت أغلى صديق .. وجعلتني ألا أنصاع لرغبات الجسد وقبول معاكسات الشبان .. حتى أنت عندي أفضل من البنات والقريبات ورأيك مقدس .

ـ ومن أجل هذا قبلت صداقتك الأخوية .

وقالت بدون مقدمات : ألم تشتهيني يا مال كزوجة عشيقة كما كنّا نقرأ ؟

كان سؤالا صريحا وصارخا بالشهوة ، فهي اليوم طالبة كلية ناضجة كأنثى ، نظرت في عينيها وبعد فترة صمت قلت : حصل ؛ لكن هناك موانع وضوابط يا أولى .. وهل كل ما يشتهى ينال .. أشتهي طعاما فاكهة ما ولم أحصل عليها .. ماذا أفعل ؟ وهكذا النساء .. ليس كل ما يشتهيه المرء يدركه .. نرى شيئا في فلم في الشارع في الكتاب نشتهيه لا نحصل إليه أو هو خيال .. كم راودني خيالك في بعض الساعات !

ـ جميل منك هذا الاعتراف! ألم تفكر بامتلاكي كأي أنثى أو الزواج مني؟

قلت : فكرت ؛ ولكنه مجرد فكر .. أنت أنثى .. ولماذا خلقت الأنثى ؟ ليشتهيها الذكور .. وستكونين لرجل واحد .. أنت أنثى وأنا ذكر .

قالت : لما احتضنتك قبل ساعة تحركت غريزتك نحوي.

تنهدت بعمق وأنا لا أدري أين ذاهبة بي الليلة : أكيد ! لست حجرا أو ملاكا يا أولى .. وهذا في رأيي أمر طبيعي ؛ ولكني تمالكت نفسي ورغبتي .. وقلت جنت فتاتي .. ولما رأيت أمك تقف على الباب استغربت تصرفك .. وأدركت أنها تراقب ذلك ، وتعرف تصرفك وأنني سأعرف سبب هذا الفعل الغريب .

تأوهت وعادت للتنهد وقالت: آه يا مال ! لقد اشتهيتك كزوج وتخيلتك تنام معي في

الفراش ..وحلمت بذلك عددا من المرات ؛ ولكني أعرف وفاءك وبغضك للخيانة ، وتكره الخائنات .. ولو حصل هذا واقعا لابتعدت عن البيت.

ـ لماذا هذا الحديث اليوم ؟

همست بوضوح :لأنني أحبك كحب امرأة لزوج وعشيق .. أرى فيك حبيبا وعشيقا .

ـ زوجا ! يا لك من طفلة ! وهل يستطيع مجند بعشر دنانير أن يفتح بيتا وأن يكون زوجا ؟! فإذا قضى الانسان شهوة الجسد ماذا سيكون بعدها؟.. لشهوة الروح أفضل أكمل .. متعة الجسد تنتهي بقضاء الشهوة والرغبة .. الشهوة التي تجتاح الناس اليوم .. كم يفتن الشباب إذا رأوْا صورة امرأة عارية ؟

ـ وهذا تجده عندنا في الجامعة ترى اللهفة في عيونهم وشفاههم عندما يجدون مجلة اباحية ...

ـ الموضوع المهم .

عادت تقول :نعم ، المهم أنك اشتهيني كما تشتهي الرجال النساء ؛ ولكن هناك موانع أبعدتك عني .

ـ أكيد ..وأنت تعرفينها ، وحديثك الليلة عجيب !

ـ أكيد يحق لك أن تستغرب هذه الصراحة .. عندما كنا نتكلم بمثل ذلك بها في الروايات كنت لا تستغرب .. أما لما نتكلم عن أنفسنا تستغرب ؛ ربما تقول هذه وقاحة ـ وأشارت إلي بالصمت ـ أمي يا مال تريد تزويجي من قريب لها وأنا أدرس .. لا تريد لي السقوط في أحضان الشبان والطلاب خاصة الذي حدثتك عنه في رسالة ، ثم وجد من تقبله عشيقا حبيبا .. ليست الاسماء القضية .. ترى أنني أضعف أمام الرغبة .. تخشى أن انفلت كما حصل لثاني بعد هذه السنوات من الكبت .. والشاب قريبها راغب فيّ بقوة ، وزارنا في البيت .. وأبي لا يمانع ، ويرى ذلك أحسن من علاقات الدراسة .. وأنت ما تقول ؟

حككت رأسي الأقرع وقلت: أنا بالطبع أعرف أولى وأحلامها وخيالاتها .. أنا بالطبع لا أعرف الشاب .. وأنت فعلا خائفة على نفسك .. ليس أمك فحسب .. أليس كذلك ؟

قالت : بلى ، أنا صريحة ، وأنا مثل الناس .. الرغبة تجتاحنا يا مال .. دائما أفكر برجل يداعبني ويثيرني كما أسمع من البنات .. ذاك الشاب كاد يوقع بي ، وأستسلم لرغبة هذا الجسد .. وهو تحول لزميلة لي لاستسلم له كما فعلت صديقتي .. وأطلب منه العودة .. ويرى أنني سأضعف وأسلمه جسدي .. فهو يتعرض لي عن بعد ؛ كأنه يقول أنا جاهز حتى لو أنني أصادق فلانة .. فأمي تريد أن أقبل بمازن قبل الضياع في مستنقع الغرائز .. وأنا أريد رجلا صراحة يا مال .. أنا أنثى .

قلت : اسمه مازن .. أنت مقتنعة به.. وقد قدم البيت عدة مرات .. أنت فتاة ناضجة يا أولى .. تستطيعين أخذ القرار بالزواج .

قالت بسخرية : هكذا ببساطة ..أنا لست مقتنعة به ؛ لكنه رجل مثلك يلبي حاجتي لرجل .

ـ نعم ، هكذا ببساطة ..أنت من كلامك الليلة .. النار تشتعل في قلبك للحب والغرام .. جسدك يضعف أمام الرغبة .. الزواج خير من العلاقات السريعة.. تزوجي ؛ ولتكن الخطبة سريعة خشية الاستسلام لها ، ثم يطلقك قبل الزواج الفعلي كما يغرر ببعض الفتيات .

ـ هل تراني شهوانية ؟

ـ ليس هذا قصدي ..كلنا لديه شهوة ، وخلقت فينا .. أنت لديك طاقة تُحبين تفريغها ؛ فلتكن بالحلال والبعد عن الغرام الفاشل؛ ولتكن في حب مازن الذي هو قريب أمك ..ويحبك .

صرخت : يحبني ! كيف عرفت ؟هل تعرفه ؟! هو يشتهيني فقط .

ـ لا ، ولا أذكر أنني رأيته عندكم ، ولا صدفته ؛ ولكن بعض رسائلك وأنت تتحدثين عنه ، والرغبة الجامحة في ثنايا كلامك وألفاظك تدل أو توحي بحبه لك وحبك له .

قالت بتفكر : الرغبة الجامحة يا إلهي ! لم أعاشر رجلا يا مال ما زلت عذراء!

قلت : أنا لم أقل إنك عاشرت رجلا ؛ لكن الكلام له إيحاءات وما وراءه .. ولهفتك على الاقتران قبل إنهاء الجامعة يدل على قوة الرغبة لشريك

قالت: أمعقول هذا كلامي ،ولا أشعر به معقول ؟!

قلت بصرامة : نعم ، معقول يا صديقتي .. لو تسمح الظروف لأعدت قراءة ما تكتبين .

عادت للسكون والتحديق في عيني : أستغرب منك هذا الكلام ، وهذا الفهم .. أنا أفكر كغيري برجل المستقبل .. أليس هذا أمرا فطريا ؟

ـ بلى ، المرأة خلقت لتكون زوجة .. خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها

ـ هذا قرآن !

ـ نعم ، قرآن .

ـ تقرأ القرآن يا مال !

ـ أكيد ، وأصلي وأصوم .

عادت تقول : أتزوج من مازن وترضاه لي ؟

قلت : مازن خير من غيره .. فهو يريدك .. وهو يعرفك ما دام قريبا لكم .. ويكبرك سنا ويشتغل .. فهو الذي حرك غرائزك للزواج .. وهو معروف للأسرة وخاصة أمك .. وهي تراه مناسبا لشبابك .

قالت بعشق لي : وأنت ألا أنتظرك ؟.. وربما الإشارات التي بانت لك في الرسائل موجهة إليك أنت .

قلت : نحن من جيل واحد وأصدقاء ومتى ؟

ـ الأصدقاء يتزوجون .

وانتقلت وجلست لصق فخذيه ووضعت يدها على فخذه وقالت: أليست لديك رغبة فيّ ؟

ـ أنا أحبك فعلا يا أولى ؛ لكن زوجة يصعب ذلك وبعيد .. أنا لم أنجح في الثانوية بعد .. لا دار ولا مال .. وإذا عدت إليها سيكون لديك على الأقل طفلان وربما أكثر .

مست وجهه وقالت : آه كم أرغب فيك ؟!

ـ ويحك أترضين لي الزنا والفاحشة ؟

ـ لم أفعل شيئا بعد والباب مفتوح .

تنهد وقال: الخلوة يا حلوة .

همست : قبلني يا مال .. دعني أشبع من شفتيك قبلني قبلة العاشق .

همست : يا الهي! الرغبة ترتفع لديّ أيتها الحبيبة .

ـ أنا أرغب فيك أنت .

طوقت عنقه فقال: لا، لا يا أولى .. فلنبق أصدقاء شرفاء .. أنت جميلة ومثيرة .. وعيناك جميلة وكلماتك تشعل النار في جسدي .

ـ وأنت جميل ! أنت أجمل فارسا أحببته كما تحب النساء الرجال .

اقتربت شفتاها من شفتيه وقالت : قبلني .

ـ الباب مفتوح

ـ أعلم .. قبلة الفراق والزواج من غيرك .

ـ لا سنبقى أصدقاء يا أولى .. لا تستسلمي للشيطان .

ـ القبلة الوحيدة استسلام للشيطان .

قلت : القبلة مفتاح الجنس .. أرجوك يا أولى تزوجي .. أنت النار والشهوة تلعبان بك .

ـ أتخاف من القبلة .. دعني أقبلك أنا .

ـ يا إلهي !ما بك اليوم ؟

ـ أهواك وأرجوك .

ـ كيف ؟ ابتعدي أين أمك ؟

ـ أمي في غرفتها ، لم أسمح لها بسماعنا .

ـ والباب المفتوح

قالت : لنتكلم بحرية ، ونحب بعضنا بحرية

ـ لا أريد أن أخسر صداقتك ورسائلك بقضاء شهوتنا يا أولى .

ـ لن أسامحك إذا لم تقبلني

ـ وأنا لن أسامح نفسي إذا فعلت .

ـ لي سنون أحبك .

ـ لم أفكر بذلك .. نحن أصدقاء ..عليك بالزواج من مازن في أسرع وقت .. تزوجي يا حبيبتي لم يعد عندك صبر عن الحب والجنس .

قالت : لم يعد عندي صبر عن الجنس .. أريد رجلا أنام معه وأحضنه ويضمني إلى صدره .. لماذا لا تكون أنت يا مال؟ أنت صديق العمر .

ـ أتقبلين لي الخيانة ؟

قالت وأنا أكاد أصدق : هذه ليست خيانة ..الكل يعلم في هذا البيت بحبي وشغفي بك .. وإنني أحبك كحبيب .. أحبك أكثر من الصداقة .. أمي ستقبل أن أتزوجك .. أنت لا تفارق فراشي يا مال .. أحس بك في كل لحظة .. ومعي في الحمام في الفراش في الجامعة رغم براءة نظراتك لجسدي فأنت تحب وتشتهي هذا الجسد وترغب فيه.

قلت : أنا أعترف باشتهاء هذا الجسد ؛ ولكنني لم أفكر بأن أكون الزوج الذي ينام مع هذا الجسد

قالت : طال انتظار القبلة .. مالك تقف !

ـ طالت الخلوة .

ـ أحبك . وقبلتني رغم أنفي وهمست : جسدي لك وقتما تشاء بزواج أو غيره لن تغضب منك الأسرة يا مال .

تزوجت أولى من مازن بعد هذا اللقاء الغريب والمثير ، وتعجبت من موقف الأسرة كلها منه .. موقف والد أولى .. كيف سمح لها بهذا اللقاء ؟! موقف أمها الموجودة معنا .. وفعلا لم تظهر بعد العشاء .. ذهاب ثاني ويزيد وعلا

اعتذرت لهم عن حفل الزواج الذي دعيت إليه ؛ كأن لم يحدث تلك الليلة شيء .. هل كانوا يجهلون أمر ما سيحدث ؟

وبقيت في المعسكر لم آخذ إجازتي الأسبوعية للبيت حتى استوعب ما حدث تلك الليلة ، كان اللقاء مرعبا بالنسبة لي ، وعلمت منه خطر الخلوة بأنثى يحل الزواج منها ، علمت خطر الشهوة لأني كدت أستسلم لنداء الرغبة وأقع في الحرام ، وعلمت منه خطر صداقة الجنس الآخر .. نارا اشتعلت في لحمي كله ، وما صدقت أن نجوت وخرجت من البيت هاربا ، ولم أقابل أحدا أثناء هربي قصدي أمها .. هربت من النار المشتعلة في جسد أولى .. أدركت خطر الجنس والنساء والغريزة تلك الساعة .. وكم راودتني النفس بالاستسلام .. الفتاة تريد ذلك بدون أي شك ، ولا ترى فيه أي حرج حتى ولو في قعر بيتها .. فكرت بضمها لصدري ومداعبة جسدها وأشياء أخرى .. كانت مستسلمة للغاية .. كانت ستسلمني جسدها بدون أدنى شك .. تلك اللحظات تفاجأت بصبري وهي تعرض نفسها عليّ .. الله سلم .. الخلوة بهنّ فتنة كبيرة .. فهن فتنة كبيرة جدا .. كانت ساعة مرعبة لأعصابي وشهوتي .. كنت لما أسمع قصة من معارفنا عن سقوطه اتهمه بالرضا والخور .. ومن ثم عجبت بعد النجاة من نجاة النبي يوسف الصديق من امرأة العزيز .. من امرأة حاكمة مالكة ، ومن شاب محكوم .. من شاب في بلد غربة .. فأنا امرأة لم تكن حاكمة، ولا تملك شيئا كادت توقع بي وتهوي بي إلى مستنقع الفسق والأجساد ، وتهوي بنفسها ، وتمرغ شرفها للذة دقائق .

أصبحت بعيدا عن أسرة موسى .. قصتي معهم انتهت بانتهاء الثانوية العامة ، ظلت علاقة مناسبات ومجاملات .. وكانت أكثر علاقة ظلت مع أولى بواسطة الكتابة إلى أن كانت الليلة التي أرادت الفتاة أن اعاشرها معاشرة الأزواج .. مما اضطرني للهرب .. وأنا في رعب وحيرة من تصرفات تلك الليلة السوداء .. أرسلت لي عدة رسائل تعتذر عما فعلت قبل أن تنكح مازنا ولم أرد عليها شكرتني في بعضها على أنني لم أستسلم لرغبتها الجامحة وطيشها تلك الليلة .. وقالت : سأبقى أحبك حتى ولو كنت مع مازن في الفراش . المهم أنها تزوجت بعد الحادث في الصيف ، وأصبحت ذات بعل وهي على مقاعد الجامعة .. وأنا تغير مسار حياتي الشخصية .. أنهيت خدمة العلم في العام التالي في الشهر التاسع كما بدأت منه .. والحمد لله أصبحت حرا

طليقا ، وشلت عن عاتقي هما وشبحا رغم استمتاعي صدقا بهذين العامين .. كان موقع خدمتي ممتعا ومثيرا .

ولما عدت للحياة المدنية كنت في حيرة ما العمل ؟ ما المطلوب ؟ تعددت المهن والأعمال .. الشاب يحتاج لمصروف ودخان وحياة ، لابد من العمل فاشتغلت في الطوبار والبناء كنجار وكحداد بناء .. كانت أياما قاسية وفراغا عجيبا في الحياة .. شهادة اللاسلكي لم أعمل بها ـ شهادة منحت لي من القيادة العامة لجيش الوطن ـ فكانت العودة للمدرسة في فكري .. أنا أعشق الفكر والأدب أكثر من المهن وعمل اليد .. أمضيت عاما ونصفا في حيرة وارتباك واضطراب حتى قدمت الثانوية العامة عام أربعة وثمانين ، ونجحت بفضل الله تعالى نجاحا بسيطا ؛ لأني درست في البيت فقط دراسة بيتية وامتحان .. وكان النجاح الغريب والمفاجئ لكل من يعرفني .. وبعد ذلك ماذا أدرس بهذا المعدل القليل ؟ ماذا أدرس ؟ حيرة من جديد !كان لي زملاء مثلي درسوا محاسبة إحدى أعمال قسم الاقتصاد والتجارة .. والنتيجة العمل كمحاسب في شركة تجارية أو بنك .. نعم بنك تجاري .. هذا ما كان أمامي .. دراسة معهد في كليات تجارية كليات متوسطة بين الجامعة والثانوية ..قد تكون جسرا للجامعة ، وكان عليّ أن أعمل لتأمين أقساط الدراسة.. العمل صباحا والدراسة مساء للحصول على أي شهادة.. كان أمامي الدراسة كمعلم أو إدارة أعمال أو سكرتارية معهد متوسط.. في النهاية درست في المعهد ليلا أو عصرا بعد دوامي في الورشات كفني كهربائي .. ولم أعمل في مهنة المحاسب يوما واحدا ولا ساعة واحدة مجرد شهادة ؛ لأنه في العام أربع وثمانين نفسه تغير مسار الحياة فعلا .. أصبحت متدينا بمعنى الكلمة .. تركت لحيتي على سجيتها .. وبدأت أقرأ في كتب الدين والعودة إلى الإسلام .. تفضل الباري بالعودة والمن عليّ بذلك .

لا أذكر كيف كانت اللحظة الاولى للتوبة ؟ مرضت مرضا شديدا الانفلونزا الحادة ، بعد أسبوعين تحسن الوضع ، تركت الدخان نهائيا بفضل الله .. تبت إلى الله .. لم تكن التوبة على يد شخص ما .. نفسي اشتاقت للتوبة والأوبة .. بدأت أرتاد المسجد لصلاة الجماعة خاصة العصر ..

تعرفت على إمام المسجد المصري الجنسية ـ مسجد الحي ، أقدم مساجد وادي النزهات ـ المسجد معروف لي ، وترددت عليه كثيرا .. وأصلي فيه الجمعة غالبا ، ومنذ عهد الطفولة .. كنت أجلس عصرا لاستماع كلام الرسول ﷺ على لسان الشيخ .. كان يقرأ من كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم أحببت الشيخ شريفا .. وشجعني الشيخ على العلم الشرعي .. وقرأت التوحيد للشيخ محمد ، والواسطية لابن تيمية .. وجدت علما جديدا ؛ لكن العمل صباحا والدراسة ليلا لم يسمحا لي بالجلوس طويلا مع الشيخ الشاب المتحمس ، الحنبلي المذهب ، القادم من الجامعة الاسلامية في مدينة النبي ﷺ عرفنا الشيخ الفاضل على العلماء ورأينا شيخ العصر في مسجدنا الشيخ أبا عبد الرحمن الألباني ـ رحمه الله ـ كان ذَا هيبة ، ويذكرك بعلماء السلف .. كنت مبهورا به .

لكن شيخ جامعنا قامت عليه حربا خفية أجبرته على الرحيل والعودة لمصر .. فغادر الشيخ الشريف العزيز النفس إلى بلده .. أصبح المسجد في حيرة ، وخفت العلم السني والحماس العلمي لحين .. واشتعل الصراع بين الأحزاب الإخوان التحرير الدعوة الصوفية .. حرب خفية .. ثم سيطر التيار السلفي على المسجد .. انسحب الاخوان إلى مساجد أخرى .. اختفى الصوفية .. وضعف التبليغيون .. وأكثرهم أصبح سلفيا .

عدت للتوبة والإسلام ، وأصبحت محبا للصلاة بروحها وقنوتها ، محبا للعلماء لدروس المشايخ والعلم الشرعي .. أخذت أنسى صفحات الماضي وحوارات الماضي وفتيات الماضي .. انتهت المراهقة وإن كانت متأخرة .

بعد زمن المحاسبة بيسير تعرفت على شيء يسمى المعهد الشرعي .. معهد يعلم علوم الإسلام ويدرس المواد الشرعية مجانا وشهادة وفرصة عمل في وزارة الدين والإسلام .. قدمت أوراقي وكان ذلك في آخر عام سبع وثمانين .. وقد مضى الفصل الأول من الدراسة ، وبدأت لما قبلت من الفصل الثاني .. تأجل الفصل الأول حتى انتهي من الثاني والثالث والرابع ، ثم العودة للفصل الأول .. وبدأت مطلع سبع وثمانين .. نعم قبلني مدير المعهد كطالب مكافح ومجتهد

ومحب للعلم الديني .. أحببت العلم الديني .. وهو علم لا يشبع منه حتى القبر ، وإن كانت الدراسة الشرعية كمعهد وجامعة لا تشبع نهم المحب العاشق للعلوم والمنهاج الاسلامي ؛ ولكنها مفاتيح للعلوم كما كان يقول أحد علماء المعهد .. كان لديّ جوع وعطش لفهم الإسلام .. مضت سنتا الدراسة سريعا سريعا .. وأعتقد أنني تخرجت من المعهد عام تسع وثمانين ، وبعد التخرج بشهور عينت كإمام مسجد في أحد مساجد المدينة .

أما صديقتي القديمة أولى فتزوجت كما قلت لكم من قريب أمها ، وتخرجت من الجامعة تحمل شهادة جامعة آداب لغة أجنبية عام اثنين وثمانين .. وأصبحت أما .. وذكرت أنها رغبت بتسمية ابن لها بمال على اسمي ، ورفض زوجها هذا الاختيار بشدة ، واتهمها بعشقي ..وأنها باعت جسدها لي قبل زواجهما حتى رغبت بالانفصال ، لولا تدخل أمها في نفي ذلك الاتهام ، وأقسمت لمازن أنه لم يكن بينها وبيني أي علاقة جسدية .. وهدأت الأمور ، وعملت في معهد لتدريس اللغة الفرنسية للطلاب الراغبين بذلك .. والمعهد تابع للسفارة الفرنسية .. وراتبها أكبر من راتب زوجها .

وأما ثاني فقد تخرج مدرسا لمادة الفيزياء كما أحب أن يكون ، وعمل في مدرسة عسكرية أثناء خدمته للعلم كمدرس لمادة العلوم ، ثم الفيزياء لطلاب المرحلة الثانوية .. وتزوج ، ولم يتزوج من فتيات الجامعة وعشيقاته ، ولم أحضر زواجه أيضا رغم تلقيّ دعوة واتصالا هاتفيا .. كنت يومها قد أصبحت شيخا لا يحضر الأعراس وما شابهها .. أصبح العلم والسمت الشرعي مهواي .. أصبحت مجالس العلم مهواي وراحتي .. فكنت أتنقل بين المساجد لسماعها .. عادت البسمة لأمي بعد عودتي للدراسة ، وكما فشلت أولا في الثانوية كنت الناجح الأول فيها على مستوى العائلة .. إنه القدر العجيب .. أين يذهب بنا القدر؟ يذهب بنا إلى حيث يشاء الله .. سبحان ربي !

تزوج ثاني بعد أكثر من عام في العمل كمدرس تلاميذ ، لم يتزوج كما ذكرت سابقا من رفيقات الجامعة اللواتي تعرف عليهن ؛ وربما نال منهنّ جنسيا كما تدعي أولى ، ولثاني علاقات جنسية

كاملة من أيام الثانوية .. علمت ذلك من رسالة من أولى التي لم تنقطع بالكتابة إليّ حتى بعد تلك الليلة السوداء الغريبة كما وصفت لكم .. وأنا في العادة قليلا ما أرد عليها قبل تلك الحادثة .. علمت منها قصة تفاصيل زواج ثاني .. الفتاة جارة لهم في الدرب لم يكن بينهم علاقات خاصة .. كلهم من سكان درب القلعة .. كان والد الفتاة ميساء مديرا لمدرسة .. فتاة تصغره بثلاث سنوات .. رآها مرة واحدة بعد تعرفه على أبيها المدير والقيم لمدرسة ثانوية .. فخطبها من أبيها الذي قبله ، ورحب به صهرا له ولأسرته بحق الجيرة وبحق زمالة للتدريس . ولما دعيت لحفل الزواج اعتذرت لهم بأني لا أحضر حفلات زواج مختلط ـ وقد أصبحت متدينا بحق وحقيقة .. وهم وغيرهم لم يكونوا يتوقعوا أن أتدين بتلك الصفة ، وأصبح شيخا حقيقة .. فأنا منذ فشلي في الثانوية ضعفت لقاءاتي بتلك الأسرة ، وإن بقينا أصدقاء ، ثم كانت تلك الليلة التي أرادت أولى أن تصبح فيها علاقتنا علاقة أجساد بعد أن كانت علاقة أرواح وربك نجى وستر .. والذي ما زال يحيرني دور أمها الموجودة معنا في البيت ودور اختفاء باقي أفراد الأسرة.. أمر محير وما زال غامضا !

أولى مع ذلك لم تيأس من صداقتي ، وظلت تكتب لي من حين لآخر بأخبارها ومشاكلها مع زوجها وأسرتها .. تعتبرني ملاكا ومستشارا أبديا ، ولم أعد أكتب لها منذ هربي منها تلك الليلة السوداء كما كنت أفعل أحيانا قبلها .. وما زلت متشوقا لمعرفة سر تلك الليلة فعلا ..ولماذا سمحت لنفسها بعرض جسدها وشبابها عليّ مع وجود أمها في البيت ؟ تعشت الأم معنا وسر اختفاء أبيها وشقيقيها وأختها ..وأختها تزوجت أيضا بعد دراسة الجامعة ..

وأنا لا أدري لماذا أرادت أن تتحول الصداقة البريئة ـ كما كنّا نزعم ـ إلى صداقة جسد ؟! نحن في زمن عجيب .. لماذا لم أعرف ؟ لم تكشف لي سر تلك الساعة في أي خطاب .. فقط شكرتني على عدم الاستسلام لرغبتها وضعفها .

ولما قبلت في معهد المحاسبة أصبح عملي في الورشات من الصباح حتى الثانية ظهرا ست ساعات شغل فقط ، ثم المعهد حتى الغروب .. وكانت رحلة متعبة .. وتعلمت لكل بداية

نهاية .. والأيام تمضي وعليّ الصبر .. فأمي تحب لي ذلك ، وجاهدت معي دعاء ومالا .. وكانت غايتها أن يتعلم أكثر عدد ممكن من ذريتها .

ولا أذكر أثناء الدراسة الأولى أي حدث مهم في حياتي الخاصة والعامة سوى توبتي وحبي لصلاة الجماعة سواء في البرد والحر .. وكانت ملاحقة المشايخ وسماعهم والجلوس معهم مهمة .. ولم أتخذ منهم شيخا دائما إنما محاضرات وبعض الدراسات.. لذلك رحبت بدراسة المعهد الشرعي بعد ذلك .

هجرت معارفي القدامى سلام وانتهى الكلام .. بحثت عن أصدقاء جدد .. وكان لي ذلك بفضل الله حتى أن بعض القدامى يراهن على الانتكاس وينتظر عودتي إلى التيه وحلق اللحية التي اقتنعت أنها سنة نبوية ، ومن يومئذ لم أمد يدي إليها .. من تلك السنة منذ سمعت أحاديث اعفائها.. والحمد لله كانت السنة هواي ومقصودي ومبتغاي حتى الموت .. بعدت عن البدع بكل عنفوان وقوة .. وحاربنا أهل البدع قدر المستطاع وباللين والرفق ، لم نكفر أحدا ، ولم نحمل سيفا بالعلم والقدوة قدر الطاقة .

رأيت مؤامرة على إمام مسجدنا السني ؛ ولكن البذرة وجدت ، وأنبتت جيلا سلفيا عاشقا عاملا بالسنة والحمد لله .. وما زال أكثرهم سنيا ملتزما وذلك الفضل من الله وحده .

كانت معركة رهيبة اضطر فيها الشيخ المهاجر للاستقالة والعودة لبلاده رأيت كيف يحارب العلماء بكل بغض وكره ؟! .. كنت يومئذ تلميذ معهد المحاسبة .. كثير من فصول المعركة لم أرها سمعتها سماعا .. قضى عندنا الشيخ أربعة عشر شهرا ما زالت في وجداني وذاكرتي .. تعلمنا منه سنة الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ..حب صلاة الجماعة ، وطلب العلم وحب العلماء السنيين .. رفض الاعتذار للخصوم بإباء ليبقى .. نعم رفض ورفض الانتقال لمسجد آخر .

عرفت كيف يحارب العلماء ؟ ظل المسجد لشباب السنة والاعتقاد الصحيح اعتقاد السلف الصالح .. وذُكرنا بكيف كان يحارب أهل السنة في القديم والحديث من قبل العامة والسفهاء

والمخاتير والأحزاب والوجهاء الجهال ؟ ..كان وقتي لا يسمح لي بالقتال عمل شغل دراسة.
أنهيت المحاسبة وعرض عليّ العمل في السعودية في أحد بنوك الربا المشهورة ، والعمل في تونس كمحاسب ، العمل في مصنع للفول كمراقب عمال ، العمل في مصنع مواسير ، العمل كرئيس فرقة حفلات زمار أو طبال يا للناس ! ويا للجهل ! وكان الاختيار الدراسة من جديد دراسة الشريعة في كلية شرعية على نفقة وزارة الجوامع والدين ؛لأكون إماما من بعد الضياع والتيه .. وهذا شيء لم أفكر ؛ ولكنه صار بفضل من ربي .

اتخذت كما قلت أصدقاء جددا ، وهجرت أصدقائي القدامى هجرا جميلا ، وهجرت المقاهي والسينما والرياضة معهم منذ بدأت التدين الحقيقي .

ذكرنا أن صاحبنا وصديق الشباب ثانيا تزوج بعد عمله كأستاذ مدرسة من بنت مدير المدرسة وظهر أنها من بنات الجيران ، لم نكن نعرفهم تلك الأيام ؛ لأني أعرف الكثير من رفاقه في درب القلعة ، ولم تمض حياته الزوجية آمنة هادئة .. كانت هناك مشاكل سمعت عنها من بعض رفاقنا إذا تقابلنا وسألت عنه ، واتصل بي وطلب المساعدة وزعم أنني تخليت عنه، وعن صداقته ، ونسيت العشرة والعيش والملح ، وطلب العون وتجديد الصداقة فذكرت له أنني تغيرت وعدت للإسلام والأمان والدين وأنني تغيرت ، ولم أعد كما عرفني أول مرة .. وتركت كل الماضي .. وأنا أعلم أنه سمع بقصتي وتغيري .. هذا أمر لم يكن مخفيا أو سرا .. وأبدى رغبة باللقاء بي لمساعدته في مشكلته الخاصة ، فوافقت ، فلا تُنسى كما يقال عِشرة سنوات مهمة من حياة الإنسان .. وكان ذلك بعد أكثر من سبع سنوات من الفراق والبرود .

جاءني إلى المسجد مسجد الرباط ، استقبلته عند باب المسجد وعانقني وعانقته وتعاتبنا ، كل يلوم الآخر .

وقال : أين سنتحدث ؟

أخذته إلى مكتبة بيت الله حيث كنت أحد أعضاء المكتبة وأحد المسؤولين عنها .. وعاد العتاب وتذاكرنا أيام زمان .. وتناسيت تلك الليلة الغامضة من حياتي .. فهو لم يشهدها .

قال : أنا تزوجت بنت زميل لنا في التدريس . وقص عليّ حكاية زواجه من ميساء بنت المدير وبنت الجيران .. والقصة أن البنت راغبة في الانفصال وتركه بسبب الحمل وتأخره.

فقلت : وما موقف والدها وأسرتها ؟

الوالد : يا مال متردد .. وأمها ترغب بذلك .. وترى أن هذه السنوات كفاية عن تأخر الحمل .. هذه الحكاية يا شيخ مال الدين .

ـ وسبب عدم التخليف .

ـ يبدو أنني عاجز عن ذلك برغم الفحوصات التي تقول غير ذلك ، وأن سنوات الزواج هذه كافية.. لنا أكثر من سنتين يا صاحبي .

ـ سنتان زواج تكفي .. وماذا أستطيع أن أقدم لك أنا ؟

ـ تتحدث مع والد البنت وتبين له مساوئ الطلاق ، وأن الصبر مطلوب ، وأن الذرية من الله .

ـ وهو المربي لا يعرف ذلك .

ـ يعرفه ؛ ولكن لما يسمعه من غيري له وقع آخر .. ويزعم أنه التقى بك .

ـ التقى بي ويعرفني !

قال : هو ذكر ذلك أمامي .

قلت لصديق المرحلة الثانوية : صدق يا ثاني أنني لا أعرفه ؛ ربما إذا رأيته تذكرته .. المهم أن ألقاه .. فأنت صديق العمر .. ذكريات وسهرات يا ثاني .

قال : هذا العشم فيك يا مال .. متى سنذهب ؟

ـ اليوم .. وسآخذ معي بلالا .

ـ من بلال ؟

قلت مبتسما : صديق الجامع .. هو حلال مثل هذه القضايا والمشاكل .

عرفه على سيد بلال ، وبعد صلاة المغرب انطلقوا الى درب القلعة ، وطرقوا بيت المدير حمي ثاني أبي ميساء .. ومن حسن الحظ وجدوا الرجل في البيت وذكر أنه يعرفهم ، وصلينا في مسجدهم ..

ورحب بهم ، ولما عرف سبب الزيارة امتعض في البداية ، ثم قال: أنا جاهز لأي حكم منكم ، فمجيئكم مقدر عندي .

استمعوا لسبب المشاكل بين الزوجين من طرف الرجل وابنته التي حضرت الجلسة لتشهد الكلام ونتائجه في آخر الجلسة ، وأبدت استعدادها للعودة لبيت الزوجية على شرط أن تعيش في بيت مستقل ، وبعد تردد ونقاش قال ثاني : عليّ أن أتحدث في ذلك مع والدي .. فكما تعلم يا مال بيت الأسرة كبير وواسع .. وأنا أكبر الأبناء .. وإذا سبب طلب الطلاق هذا سأستأجر بيتا يا ميساء .. وأمري إلى الله كما يقال .. ويا سيد مال الدين ويا أخي بلال إذا لم يحدث حمل خلال سنتين لثلاث سأطلق ، ومن حقها أن تكون أما .

تم الاتفاق على ذلك ، وأن من حق ميساء الذرية بعد سنوات خمس أو ست من الزواج ؛ لأن ذلك أحد غايات الزواج .

حضر والد ثاني بناء على هاتف ، وراح في عناق طويل مع مال ، وعلق على لحيته مع قليل من العتاب .. واطلع على الاتفاق وحديث الصلح .. وطلب هو من والد ميساء أن يستأجر بيتا لابنته بيتا قريبا من داره .

ولما قال الرجل : تشاور مع أم ثاني .

قال بحدة : امرأتي تحب سعادة ابنها يا أبا رمضان .. ونحن نحب لهما أن يرزقا ذرية .. من يكره ذلك ؟! ولماذا تتزوج الناس ؟ وأنا ساعدت في علاجه .. وكل أطباء العقم أكد أنه يستطيع أن ينجب ، ليس لديه مشاكل من هذه الناحية طبيا .. وميساء تعلم ذلك .. شكرًا لك شيخ مال الدين وشكرا شيخ بلال .

وتم الصلح ، وانصرف الشيخان لحيهما شاكرين الله على ما أجرى على أيديهما من صلح ومنع طلاق ولو إلى حين .

وتلقى مال رسالة من أولى بسبب هذه الحادثة ، وتمنت أن تعود الصداقة القديمة بينهم ، وأن ينسى مال تلك الليلة ، وما حدث فيها من إغواء ومراودة .

وما زال مال الدين يرغب بمعرفة سر تلك الليلة والمراودة مع علم والدة أولى وثاني بها .. ولماذا سمحت لابنتها بذلك؟!



السفر والإمامة

ما دمت يا مال الدين محبا للعلم الشرعي فهناك معهد شرعي مجاني في ذلك الموقع يعلم الدين هذا ما قاله لي طالب الماجستير الشرعي الإندونيسي عبد المجيد الساكن في الحي ، ويصلي في مسجدنا ، ويعاشرنا ليتعلم اللسان العربي الشعبي .

ـ أين ؟ وذكر مكانا جوابا على أين .

ذهب مال وقدم الأوراق المطلوبة للمعهد الشرعي ،ولما قبل تفاجأ فعلا .. وشكر الله على قبوله تلميذا شرعيا، وسيبدأ الدراسة من الفصل الثاني فالأول قد فات موعده .. والدراسة صباحا وتنتهي ظهرا ، فلا مجال للعمل صباحا في الكهرباء أو غيرها .

الدراسة الشرعية مواد ومعارف دينية فقه تاريخ خطابة ووعظ قرآن تجويد لغة نحو شعر أدب حديث مصطلح عبادات معاملات حدود تاريخ فقه تاريخ تشريع .

مضى الفصل كما تمضي الأيام ، تجدد حماسي مع مضي الفصل الاول لي .. كانت الدراسة جميلة في شيء تحبه وتهواه .. وإن لم ترو عطشان وتسد جوعا للعلم الشرعي .. نتف ومفاتيح على رأي أحد الشيوخ في المعهد ..كنّا نخطب في مساجد تحت التدريب تسمى مساجد صغيرة ، ولما اشتغلنا في القرى كانت كبيرة .

وصاحبي ثاني بعد عودة امرأته ميساء له تعاقد للعمل في إحدى دول النفط كما يفعل الشباب العربي تحسينا لوضعه المالي بضع سنين .. أنا في الشريعة المتوسطة وهو إلى السفر .

ولما تخرجت من المعهد الشرعي رجع لأرض الوطن منهيا عقده ومطلقا لزوجته حسب الاتفاق الذي ذكرناه سابقا .. لم تلد المرأة ؛ فكان الفراق ، فارقها بمعروف ، وواسيته وقلت الخيرة فيما يختاره الله الملك .. وقد بارك تخرجي ونجاحي وعملي كإمام مسجد ، وهو دهش مما حصل لي وانقلاب حياتي .. نحن قدمنا الثانوية أول مرة ثمان وسبعين درس وتزوج وعمل وسافر ، وأنا بعد عشر سنين تخرجت ، وتعينت إماما سنة تسع وثمانين .

عملت إماما للصلاة وخطيبا في أحد مساجد القرى البعيدة عن قلب المدينة الكبيرة .

أهم عمل ووظيفة للإمام إقامة الصلاة لرواد المسجد صلاة الجماعة ، ثم الخطبة نهار الجمعة ومناسبات الأعياد والمواعظ في بعض المساجد في المنطقة .. ووفقت في ذلك بفضل ربي وباختيار ربي .. ولم أفكر يوما بأني سأكون إماما وشيخا .

الإمام يعد الخطبة ليلقيها على مسامع الحاضرين لصلاة الجمعة ..وما زلت أحتفظ بخطب البدايات ، وكان الجهد فيها واضحا والمصادر مبينة .

كان مسجدي مسجدا قرويا وبسيطا بمعنى الكلمة ، لا مشاكل فيه تذكر ، ولا أحزاب ، ولا تيارات حزبية .. صلي وامش .. وكنت أقضي يوم العطلة الأسبوعية كموظف في وادي النزهات عند أصدقائي الجدد في تلك الدكان الصغيرة مع الصديق الكبير حسين .

عملت في مهنة لم أفكر فيها يوما ، ولم تخطر في بالي هذه الوظيفة العظيمة .. وكانت قدرا عجيبا .. ويحق للمرء أن يعجب من تدبير القدر ، ويستسلم له ، كنت في تيه ، ثم نور وإيمان ، إنه أمر ربي لا إله إلا هو .. لا راد لأمره سبحانه وتعالى!

لم أكن تزوجت بعد ، وقد اقتربت من ثلاثين سنة ، أنهيت المعهد الاول ، ثم التحقت بالمعهد الثاني، ولم يكن بينهما فاصل طويل إنه القدر !

الناس لا تحب أن يكون الشيخ والإمام أعزبا .. فهذا يتحدث عن أخته ، وهذا عن قريبته وجاريته مما دفعني لمفاتحة أمي بالزواج ، فاقترحت أن أتزوج من بنات العائلة الكبيرة ، ولا داعي لتغريب النكاح .. وأنا لم يكن في خلدي أي أنثى معينة ؛ لأني لا أعرف بنات العائلة بصورة بينة .. وقدر الله أن يكون الزواج في أيلول عام تسعين .

وبدأت حياتي الزوجية سلسة وهادئة ساكنة .. والحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى .

ولما رجع صديقي ثاني من الغربة جدد الاتصال بي ، وبدأ يأتي للقائي في دكان صاحبي حسين لسماع أخباري ورحلة تديني .. وأسمع أخباره وأفكاره .. وكان لقاؤنا كل سبت حيث هو يوم عطلتي بدلا من الجمعة ، نجلس في الدكان دكان الأخ حسين خلو نشرب الشاي نتناول بعض الطعام مع صديقنا الفاضل .. وكان نعم الأخ والفاضل ؛وربما يحضر بعض الرفاق والأئمة

ونتحدث في مسائل شتى وحتى السياسة والاقتصاد .

كان ثاني يرغب بالزواج من جديد ، فالرجل لا يستطيع العيش بدون امرأة ؛ ولكن مشكلة الخلفة تقف حجر عثرة أمامه ؛ فكان يفكر بنكاح أرملة أو مطلقة تقبل به .. فهو من جيلي ثلاثون سنة .

تجددت الصداقة القديمة صداقة الثانوية ؛ لكن دون أن أذهب لبيته ، فالوضع غير مناسب .. أنا اليوم متدين وملتزم ، وهو وهم غير ذلك .. وبيتي بعيد في قرية .

قال : يا مال أريد زوجة ..لا أريد العودة لإيام الجامعة وتلك الأعمال .

فكرت وقلت : هل تحبها فتاة متدينة ؟

ـ لم أصل قط .

ـ التوبة بابها مفتوح .

ـ التوبة كيف تكون ؟

قلت : كما فعلت .

ـ والخمر !

أجبت : كانوا أكثر منك سكرا وخمرا وتابوا .. وأنت في السفر لم تكن تشربها

ضحك وقال: كانت تهرب إلينا .. تباع سرا في بعض المدن الساحلية ، وتهرب للداخل .

ـ ثاني عليك أن تتغير .. ألم تمل من الخمر والعبث والنساء ؟ كنت سيّء السمعة أيام الجامعة .

قال : ملعونات .. لقد دمرنني فتيات الجامعة ..كل من عرفتهن تزوجن .

قلت : سيجدن من هو على شاكلتهنّ .. إذا أحببت أن تعود علاقتنا كما كانت قديما عليك أن تتغير .. عليك بالتوبة يا ثاني .. أنا اليوم محسوب على طلبة العلم .

ـ هذا يحرجك .

قلت : نعم ، عندما يعلم الناس فساد أخلاقك ماذا يقولون علينا ؟ .. عليك أن تحسم أمرك ؛ لأكون لك عونا .

ـ سأفكر .

ـ فكر كما شئت .. سمعنا أن أولى ولدت ولادة صعبة .

قال: كادت أن تهلك ؛ ولكن لها عمر .. من أخبرك ؟

ـ رأيت شقيقك يزيدا في السوق قبل زمن يسير .. كنت أشتري ثوبا جديدا وحدثني عن ذلك .

ـ ما زالت تتحدث عنك وتحبك .

ـ لم يحدث بيني وبينها شيء سيئا مريبا يا ثاني أيام صداقة الشباب.. وأنت خير من يعرف ذلك .. رأيت صداقاتها من صداقتي معك .

ـ هذا ما عرفته .. وأنا تفاجأت حقا لما أخذت تتحدث عن رغبتها بالزواج منك أيام الجامعة وأيام تجنيدك .. ظننت أن بينكم شيئا دون علمي ، وأنك رغبت بها زوجة ، فكنت في دهشة وحيرة وسكت .

ـ صدقني كنت أظنها تمزح عندما نتكلم في مثل ذلك الموضوع .

ـ كلنا أحببناك يا مال ؛ لكنها أيام الجامعة اعترفت للأسرة بأنها تريدك زوجا فدهشت أنا وأمي وأبي من رغبتها تلك .. وقلنا لها تفاهمي مع مال .

ـ دعنا من الماضي يا ثاني ! فأنت صديق الذكريات .. عد إلى الله .. دعك من أفكار الإلحاد واللادين

قال : أليس اللادين دينا ؟

قلت : دين الهوى والشيطان.. الذي لا دين صحيح له يعبد الشيطان .

قال : أنت بطل يا مال الدين !ولك من اسمك نصيب وجاهدت وتركت جاهليتك وشيطانك ..ما هو الشيطان ؟

أجبت: لما تتدين ستتعرف على الشيطان عندما تصلي ستعرف الشيطان وما هو الشيطان ؟ .. عندما تتوب فعلا ستعرف من الشيطان صدق ذلك .

ـ فعلا أرغب بمعرفة هذا الشيطان الذي تتكلمون عنه وتتعوذون منه .

قلت : لا أدري كيف عملت في الخليج ؟

تبسم : هناك الكثير من الفجرة والفسقة مثلي كما نحن في نظركم .. الشيطان كما تزعمون في كل مكان .

صرخت مللا: أنت أحد الشياطين يا ثاني .. لا تضحك قال تعالى : ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان .. إن لم تعبد الرحمن ستعبد من ؟ ..الشيطان

ـ على كل حال أنا حريص على صداقتك .. وقد أتعرف على هذا الشيطان الذي يتحدث عنه الشيوخ .

ـ الله يهديك ويصلحك .

ردد: أمين .. وأتمنى ذلك ، تحملني يا مال !

ـ إني أتحملك وأحب لك الخير ، وما أحب لنفسي .. سلم على الوالدة والوالد كانوا لي كأبوين .

ـ أمي عاتبة عليك كثيرا .. كانت تعتبر نفسها أما لك .

ـ وأنا أعتبرها كذلك .

الحج موسم ثلاث وتسعين

كان موسم الحج على ما أذكر عام ثلاث وتسعين صيفا في حزيران على ما أذكر .. ولم يكن الأمر سهلا .. فهذه أول مرة أغادر البلاد أو قل أسافر .

فكانت الرحلة شاقة ومتعبة ؛ ولكنه حج ، وقدره الله لي ، وشكرته كثيرا وأثنيت عليه على هذه النعمة الكبيرة .. والحمد لله حمدا كثيرا .

ولطبعي الخجول أعجز عن وصف هذه الرحلة إلا أنها كانت متعبة ، ورافقت الحجيج بانفعال متباين بين الخوف والحماس .. وبذلت جهدي وعلمي المتواضع في بيان وشرح مناسك الحج وإن وقع مني بعض الأخطاء ، الجميل في الحج أنه عبادة جماعية .

زرنا المدينة أولا بعد رحلة شاقة في حافلات متعبة ، زرنا المدينة المقدسة والقبر الشريف والبقيع والمواقع التاريخية البارزة .

وانتقلنا لمكة الشريفة ، ورجعت للديار سالما بفضل الله تعالى .. فله الحمد والمنة .. فتحصيل فريضة الحاج لشاب صغير من الأمور المهمة في حياة المسلم خاصة إذا كان صغيرا أو موظفا صغيرا .. وذكريات تلك الرحلة مشوشة في ذهني ؛ لأني أكتب هذه السطور بعد أكثر من ربع قرن .

ولما عدت غانما قدم الناس والجيران والأصدقاء للتهنئة والتبريك وشراب الماء المقدس زمزم ، وأكل التمر الحجازي ، والحصول على الهدايا ، ولابد أنني أحضرت منها ؛ لأن هذه أول مرة أسافر فيها خارج البلد .

أكيد كنت متوترا وقلقا عند السفر ، وسعيدا عند العودة .. وقد أصبحت حاجا وعمري ثلاث وثلاثون سنة .

الحج عظيم ! ويذكرك بأشياء كثيرة وعميقة في التاريخ .

علمت من صديقي القديم ثاني أن والديه حجا مثلي وفي نفس الموسم ؛ ولكنا لم نلتق خلال الموسم .

لدى الناس عادة أن المسلم عندما يكبر ويزيد عمره عن الخمسين والستين عليه أن يحج ويسلم وأن عهد المعاصي والشباب انتهى .

فرحت لهذا الخبر فرحا صادقا ، وأنهما عادا للحق والإسلام ، وتابا إلى الله ورغبت بالذهاب للسلام عليهما ، وتهنئتهما بالحج ، والمباركة لهما ، واللقاء بهما بعد هذه السنين من الفراق ، وأنا أحببت ذلك اليوم لذكريات الماضي ، وتأخر هذا اللقاء بضعة شهور لظروف خاصة بهم .. مرضت الأم مرضا شديدا ، وعانت منه ؛ ولكنها كسبت الحج والتوبة .

وثاني ترك الشراب كما قال ، وأخذ يصلي ويقطع كما قال .

في الشتاء كان اللقاء رحبت بي أم ثاني على النمط القديم عانقتني ، ونسيت نفسها ، وأنا تجاهلت الأمر ، ثم تذكرت أنني أصبحت شيخا وإماما وهي حاجة ، وكنت بلحية طويلة وثوبا سنيا وبعد قالت ونحن نجلس : أنت شيخ بجد يا مال الدين !

تحدثنا عن الصحة ومرضها وشفائها وتقاعد موسى من العمل ، وتحدثنا عن رحلة الحج وتعبها وحرها وقالت : أنا تركت السفور والخمور قبل الحج يا مال وكذلك زوجي .

ـ الحمد لله له الفضل والمنة .

ـ تأثرنا بك يا مال الدين سماعا .. أنت قدوة لنا في العودة لديننا .

ـ أنا لا شيء يا أم ثاني .. أين الحاج موسى ؟

ـ سيأتي مبكرا .. هو في بيت أمه .. أنت تعلم أن والده مات قبل موسم الحج وتلقينا برقية منك .

قالت : رحم الله أموات المسلمين .. والحمد لله على الهداية .

ـ أولى صديقتك القديمة هنا .. أتأذن لها بتحيتك .

ـ هذا إحراج يا أم ثاني .

كانت تقف بالباب ،وقالت ربما بتهكم أو جدية : لماذا الإحراج أيها الشيخ ؟! ألا تستقبل النساء وقد لبست ملابس محتشمة إلا شعر رأسي .. لم أستطع تغطيته ..لم أتعود على ذلك .

نهضت قائما وعيناي في الارض : مرحبا يا أخت أولى ! كيف أنت ؟ وماذا سميت بكرك ؟

ـ كنت راغبة بتسميته مال .. مازن زوجي رفض هذا الاسم .. وظن أن بيني وبينك ما يشين وسوء حتى أنني أقسمت له أنك شريف وعفيف .. وما زال قلبه منك بشيء ، وحدثت بيننا الكثير من المشاحنات بسبب صداقتنا .. الناس لا يصدقون أننا شرفاء .. وكثير من البنات أحبت شخصا ، ولم تتزوجه ، والعكس يحصل .

ـ هو جاهل .. أنا لما أراد زواجك جاءني دون أن أعرفه .. وسأل عن علاقتي بك ، فأقسمت له أننا لم يحصل بيننا مريب ، ولم أمس شعرة منك .

ـ لم يقل لي ذلك .

ـ وهل يقول الأزواج كل شيء يا أم ... ؟

قالت : أم جلال .. ابني الأكبر جلال .. اهلًا بك يا صديقنا القديم .

ـ أين زوجك ؟

ـ في البيت رفض المجيء للتعرف عليك .. هل علمت أن ثانيا سيتزوج أخت مازن .. أخته الأرملة .. وأنا نصحته بالبعد عنها يا مال الدين .

نظرت لثاني وقلت : أما زلت قوية يا أولى تتدخلين في شأن الآخرين ؟

حدقت بي : أأنا قوية يا مال ؟

ـ أنا أعرفك.. اجلسي .

وجلس الشيخ وجلست وفعل ثاني مثلهم ، وقال لما خيم الصمت والسكون : نعم، يا مال .. قد أتزوج شفاء شقيقة مازن الأرملة .. لديها ثلاثة أطفال ؛ ولعل الرابع يكون مني .

ـ إن شاء الله يا ثاني .

قالت أولى : أتمنى من أعماق قلبي أن يطول زواجك منها .. كان زوجها جميل يعاني ويعاني يا ابن أمي وأبي .. كيف الحج يا مال ؟

ـ الحمد لله وفقنا إلى ذلك ، وأتمناه لك .

ـ شكرًا .. دائما أنت رائع ! كم الفرق بين أيام زمان وأيام اليوم يا مال.. أكيد أنك لا تدخن

اليوم .. وأنا أعلم عمرك ما شربتها يوما ما .

قلت مبتسما : نعم ، نعم ، لم أعرف الشراب بفضل الله أيام ضعف الإيمان أيام الجهل ولا الزنا .. والسجائر تركتها منذ أكثر من عشر سنين .. من أربع وثمانين .

قالت : أتخيل الزمن وقف بنا إلى تلك الأيام .. كم هي سريعة رغم ذلك! في نظري ما زلت رائعا يا مال !

ـ لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما في أنفسهم .

ـ تعودنا على السفور والتبرج والقليل من الخمر .

ـ هداكم الله .. مالك يا أم ثاني صامتة ؟

قالت صافنة ساهمة : كم تغيرت يا مال الدين ! وكم الفرق بينك وبين أيام زمان أيام يوم دخلت علينا صديقا للعائلة !

ـ ولكني يا أم ثاني رغم ذلك لم يعهد على شرب الخمر ولا الزنا .. وهذا ما كان يحير ثاني ويقول : أكثر رفاقك يسكرون ويخمرون ويعرفون البنات وجل أوقاتهم في التسكع إلا أنت !

قال ثاني : إني أذكر ذلك الكلام بيننا ..كأنك كنت شيخا بيننا .. لم تكن تبدو لنا متدينا مثل اليوم .. كنت كأغلب الناس .

ـ كنت أصوم وأصلي.

ـ ليس كمثل هذه الأيام .. اليوم تغبط يا صاحبي .. هل أدعوك لحفل زواجي ؟

ـ لا ، لن أحضره .. اليوم لا أحضر حفل زواج إلا إذا كان شرعيا .

ـ وهل زواجنا غير شرعي ؟

ـ قصدي الحفل والفرق الموسيقية .

ـ لكم دينكم أيها الشيوخ ولنا ديننا ؛ ولكني لا أستغني عن صداقتك .. ولا أنسى موقفك أنت والشيخ بلال معي أيام ميساء .. لقد زوجها والدها .

ـ هل ولدت ؟!

ـ لم أسمع .. أسمعت شيئا يا أولى ؟

قالت : لا ، لم أسمع بعد .. ألا ترغب بزيارتي يا مال ؟ أعرفك على مازن .

ـ لا داعي لإحراجه .. فالرجل يكرهني كما بد لي من كلامك .. ويعتقد أنه كان بيننا سوء وما يشين .

قالت : هو يتحدث عن ذلك لسوء ظنه بي .. فهو يعرف من أنا ؟ وأنا أعرف من هو ؟ حياتنا جافة .. مجرد شريكين سرير واحد يا مال الدين .. أنا لم أحسن الاختيار .

ـ على المرء أن يرضى بما قدر له يا أولى .. تخيلي لو تزوجتك كما كنت ترغبين .. هل تقبلين بلبس الجلباب والزي الشرعي وأن تتركي التبرج والسفور والعطور .

ـ لم يكن يخطر هذا في بالي رغم لمحات التدين التي كانت فيك .. لم أكن أتصور كما قالت أمي أن تصبح إماما وشيخا .

قلت : أنا لست شيخا بمعنى الشيخ .. أنا دراستي متواضعة .

ـ لكنك إمام وحاج اليوم .

ـ ذلك الفضل من الله وحده .

قالت : المهم انصح صاحبك بالبحث عن زوجة غير شقيقة مازن .

قالت الأم : دعيك من ذلك يا أولى .

صاحت : حتى لو طلقني مازن كما يهدد دائما .. سأتكلم احذر يا ثاني إنها امرأة عوجاء غير مضبوطة .. إنها امرأة منحرفة .

قالت الأم : لا وقت لهذا الكلام أمام مال يا أولى .

صاحت : مال أخ وصديق عزيز .. سأنصرف الآن .. ليتك ترد على رسائلي المستمرة إليك ..وعليك أن تنسى تلك الليلة من حياتنا .

قال مال : ليتني أنسى يا أولى!

ـ عليك بالنسيان .. حج مبارك .. ربما أحج في يوم ما .. ها هي أمي تخلت عما كانت عليه ..

المرض يهد البدن والنفس .

قالت الأم : كم أنت قاسية يا أولى ! أنا لم أجبرك على الزواج من قريبي مازن .. أنت كنت تريدون زوجا أو رجلا .. ومازن راغب فيك وتكلم عليك .. هل جئت بعريس ورفضته ؟ انصرفي إلى بيتك .

ـ كان العريس موجودا يا أمي .وأشارت إليّ

أجابتها : لم يكن مال ـ وها هو يسمع ـ يرغب فيك زوجة .. ولم يكن سنه تؤهله للزواج ..كان مجندا بعشر دنانير ..أليس كذلك يا مال ؟

قالت بغضب : لو وافق لانتظرت حتى أتخرج وأصرف عليه حتى يقوم على قدميه .. لم يكن عليّ خدمة علم .. وكان عملي سريعا ومحجوزا .. وها هو قريبك يستدين مني ، ولم يسدد فلسا واحدا .

قال مال : لم يكن في بالي الزواج من أولى للصداقة والثقة التي أوليتموني إياها يا أم ثاني ، وأكدت ذلك لثاني أن الذي بيني وبين أولى حب الكتب والقراءة .. وما لمست يدي شيئا من بدنها إلا مصافحتها ، وحتى الزواج نفسه لم يخطر في بالي تلك الأيام .. طالب فاشل وفقير .. كانت عائلتي غير قادرة على تزويجي يا أم ثاني .. فنحن أكلنا عيش وملح ، فلا أخون هذه النعمة .. فهل أخونكم ؟ كان عليّ أن أكون رجلا بمعنى الكلمة .. وصدقوني ما عرفت الفاحشة مع أي بنت متزوجة أو غير متزوجة .. وهذا من حفظ ربي .. رغم العبث في مثل هذه المواضيع ؛ انما هي من الأفلام والمجلات .. وثاني كان يعلم ذلك عني.. وأولى نفسها تعلم ذلك كنت أخاف النساء والبنات .. كانت الصداقة غايتي الوحيدة وحب الكتب والقراءة هي التي وثقت علاقتي بأولى .. هل رأيتني غازلتك يا أولى ؟

قالت مقرة : كنت أنا المخطئة ، فلما كنت أسمع حديثك عن شعراء الجاهلية.. أمرؤ القيس ونساؤه وعنترة وعبلة أظن أن هذه الكلام لي كلام مبطن .. إياك أعني واسمعي يا جارة .

ـ وماذا أفعل لظنك .. أنا كنت جادا وأحب قراءة تلك الاشياء ، وحفظ تلك الأشعار

والقصص .. والإنسان يستمتع إذا وجد من يصغي له كما كنت تصغين .

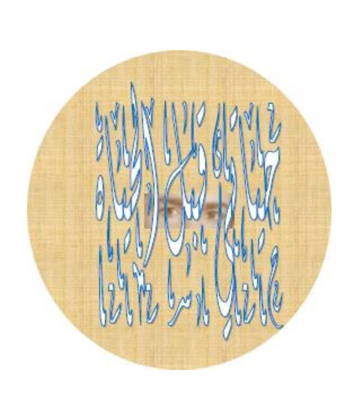
تنهدت قائلة : هذه أدركته بعد تلك الايام الجميلة .

ـ نعم ، فلتبق ذكريات جميلة .

قالت : إلى اللقاء .. المهم انقذ صاحبك من هذا الزواج.

التفت لصاحبي وقلت : عجيب هذا الزواج في نظري !

صاح ثاني بغضب وضيق : أريد امرأة.. هل أعود لإيام الجامعة والحانات يا مال ؟ يحتاج الرجل لأنثى في البيت .. لا أدري كيف صبرت أنت عن النساء لثلاثين سنة ؟! أولى عندها ذلك أفضل من هذا الزواج .. أظل أعتمد على أمي في غسل ملابسي الداخلية ، وغسل ثيابي وكويها يا مال .. وأنا لا أستطيع أن أكون متدينا مثلك ، وأتزوج امرأة متدينة تلبس ثيابا سوداء تدخل الحزن والضيق على النفس مع السلامة يا أولى .. حافظي أنت على بيتك وأولادك .



ذكريات أخيرة

هذه ليست مذكرات كاملة شاملة أو يوميات إنها مشهد مختصر من حياتي أو جزء منها ، لم أكتب عن كل الأصدقاء والأسر التي عرفتها وعرفتني ، لم أكتب عن صديقي الذي غرق ومات عندما كنّا صغارا ، ولا عن الآخر الذي صعق من أجل إنقاذ أمه من غسالة ـ رحمهم الله ـ وعن غيرهم ..كانت حياتنا في ذلك الحي صعبة فقر وتشرد وبؤس وخيم ومخيمات ومياه وسيول هذا ابتعد عنه القلم ، ولا حاجة لذكره .. فقط قصة أسرة أحببتها مراهقا وشابا، وما زلنا على الدرب .

إنها أسرة ثاني التي عرفتها أيام الجاهلية كما أحب تسميتها وأيام العودة والإسلام بعد فترة ضياع وتيه .. كان من حولي فرق الإلحاد والأحزاب الدينية .. وسبحان ربي لم أقع في شبكة هؤلاء ولا أولئك.

لماذا ؟ لا جواب.. ليس عندي جواب ..كان لي رفاق غرقوا في مستنقع الجنس والزنا .. ولي أصحاب استعفوا ونجوا .. كنت متفرجا على الطرفين حتى وصلت لمرحلة التوبة الحقيقية بعد إنهاء مرحلة الجندية الإجبارية .. هكذا كان يسمى التجنيد الإجباري ..لماذا ؟ لا أعرف .. كنت مغرما يوميا بالجلوس في المقاهي .. وكله مع التوبة مات واختفى ، والسينما وحتى الرياضة إلا لعبة الشطرنج ما زلت أهواها وأمارسها .

كل رفيق له حكاية ونوادر .. تعلقي بالدِّين دفعني لترك كل زملاء الماضي أفرادا وأسرا إلا ثاني وأسرته .. اتخذت رفاقا جددا .. لا أعرف من ماضيهم شيئا .. وهم كذلك جمعنا الدين والعلم .. إنهم ملتزمون .. بعضهم سار للجهاد ورجع ، وبعضهم مات هناك .. أقصد الجهاد في أفغانستان .. وبعضهم طلب العلم وأصبح دكتورا في الشريعة الاسلامية .. وبعضهم رحل عن الدنيا إلى رحمة الله .

وتعلقت في فترة التسعينيات بقراءة المجلات الإسلامية والثقافية وحتى السياسية والأدبية ، وجدت بعد حين لديّ ألف عدد منها.. منها العربي والفيصل والمجلة العربية والمنهل والحرس

والثقافية الأردنية واليرموك وطبيبك وطبيب العائلة والحكيم ومنار الإسلام والأمة وماجد وأحمد والمستقبل وفصول والقصة والقاهرة وأسماء كثيرة لعلي اعمل بها قائمة للتاريخ ؛ لأن بعضها عجزت عن الاستمرار في مطالعتها ، وعرفت سلسلة عالم المعرفة وغيرها .. العلم والثقافة لا يشبع منهما .. وعشرات الروايات والقصص الواقعية والخيالية قرأت وملكت .

وعليّ أن أختم هذه الذكريات بقصة ثاني وأولى توأمه ، فلم نتحدث عن أخيه ولا أخته علا ، لم تكن علاقتي بهما قوية ؛ ربما يعتبروني نكرة ولا يُستحق الجلوس والحديث معي .. لكل رأيه وشأنه .. لم أتحدث عن أسرتي أخوتي أهلي زوجتي فله مقام آخر .

كما توقعت أولى كان زواج ثاني الثاني جحيما حسب رسائل أولى ، وحسب ما يصلني من مقاطع .. بعد الزواج بزمن يسير بدأت المشاكل الزوجية بين ثاني والأرملة شقيقة مازن .. الأسرتان منفتحتان كما يزعمون بمعنى أن الدين لا أهمية له في حياتهم العامة والخاصة .. ومتشابهات بينهم كالسفور والخمور والصالونات واللبس والربا .. حياتهم الاجتماعية بشكل عام مفتوحة ومرنة .. الذوق العام عنوانها .. ومع ذلك لم يتقبل ثاني حياة زوجته العامة والخاصة فهي تحتفظ بكل أصدقائها وأصدقاء شقيقها مازن وآخرين وشقيقاتها وزوجها السابق في سهرات وحفلات داخلية وخارجية ، لم يحتمل ثاني هذه الحياة الصاخبة والمجون والاستهتار بالأجساد والشراب ؛ فكان زوج وليس بزوج ولا خصوصية .. شلة تدخل وشلة تغيب .. تسهر في البيت ؛ كأن لا زوج لها .. لم يستطع ثاني التأقلم والتكيف معها ومجاراتها كما تقول أولى سواء في البيت في الفنادق والملاهي .. وتريد أن ينفق عليها وعلى كل ذلك وشراء الملابس ودفع للصالون أجرة المكياج والتبرج وعلى أصحابها وسكرهم ومجونهم .

تدخلت أمه في الأمر ، فرفضت الأرملة السابقة نصحها والتدخل بينهما وحياتها.

غرق في المزيد من الشرب زاعما الهرب من الذل والهوان الذي يعيشه مع زوجته ، وأهملها ولم يعد يقربها كزوجة ، ولا هي سائلة عن ذلك ، ومضت سنة على هذا الحال الأسود ، لم تعد زوجة في نظره ، وضاق والده موسى من تصرفات زوجة ابنه الشاذة والمثيرة والماجنة ورغبه بالطلاق

والخلاص منها ، ولم تعد تعجب ثاني حياتها المستهترة بكل الأخلاق والقيم على الأقل في البيت الخاص بهما بيت الأسرة بيت الأب .. وتضييع حياته بالسكر والمخدرات لا يحل مشاكله فما يكاد يهبط الليل حتى يغرق في الشراب والسكر حتى ترجع المرأة من سهرها أو يخرجون من بيتها .. والإزعاج للوالد والوالدة لا ينتهي فأصر والده على طلاقها أو يغادر بيت الأسرة وحتى أمه قريبتها لم تعد تطيقها وتصبر عليها .. وكثرت المشاجرات والمنازعات بين الأسر دون فائدة .

استأجر بيتا عند مازن شقيق المرأة ؛ فكان ثاني يترك المرأة مع شلتها ويقضي ليله عند أمه طعاما وشرابا .. وقبل مضي السنة الثانية كان الطلاق ، ودفع الوالد كل ما يترتب عليه لإنقاذ ابنه ثاني .. وكانت سمعة ثاني في المدرسة والوزارة والجيران في أسواء سمعة .. ونتيجة لطلاق أخت مازن طلقت أولى هي الأخرى .. مأساة اجتماعية .. وكتبت لي الآن تحررت من سنوات العذاب يا مال .. صدق أنني كنت في عذاب .. وليس زواج .. كنت أعيش في الجحيم التي يتحدث عنها الشيوخ إذا كان هناك جحيما كما تقولون.

كتبت لها مضطرا عن حقيقة وجود الجحيم وأن جحيم الدنيا مع جحيم الأخرة لا يذكر .

فلم تتأثر من كلامي ، ولم تهتم برسالتي ، وكتبت ترد بعد حين لم يعد لكلامك تأثير عليّ كالماضي يا مال .. ولا أدري لماذا كان كلامك قديما مقدس عندي ؟ اليوم أنت لا شيء .

دعوت لها بالهداية وتوقفت عن الكتابة لها ناصحا ومرشدا ، وأحببت لها ما أحببت لنفسي ، وأشفقت عليها وعلى ثاني إلى أن سمعت بموت أمها وحضرت دفنها ، وتكلمت واعظا على قبرها لنفسي والحاضرين .. وبعد انتهاء العزاء فكرت باللقاء بها وبشقيقها.

ولكن يزيد رفض ذلك ، وأعلمني أن شقيقه يعيش في حالة إحباط ويأس ولا يفارق البيت ويعيش مع الخمر ليل نهار .. وأولى تعود من عملها وتفعل مثله شراب في شراب حتى أنها تطرد أولادها إذا جاءوا لرؤيتها ، وأن طلاقهما كارثة أكثر من كارثة الزواج .. فعجزت عن الحل والمساعدة .

الحق لم تكن تشغل حياة ثاني وأخته حياتي إلا قليلا ؛ إنما ذكريات سنوات الثانوية هي سبب اهتمامي بهم وتطاردني وتلاحقني للاهتمام بهما وبأخبارهما .. فنحن منذ فشلي الأول في الثانوية ضعف ما بيننا بشكل عام ؛ لكنها الذكريات واللحظات الممتعة لم تختفِ تماما .. فكنت اضطر للحديث هاتفيا مع يزيد للسؤال عنهما ، ويخبرني أن حياتها مزرية خمر مخدرات .. وهي بعد الطلاق في حياة مزرية .. ليس كما كانت تزعم قبل الطلاق .. وكشف لي يزيد أمرا خطيرا حدث في البيت بيت الوالد .. فقد حاول ثاني الاعتداء جنسيا على أولى وضربته بسكين مطبخ .. وطلب مني يومها المساعدة ، فجئت البيت ، وكان الوالد الأرمل محطما حزينا ، وبكى وهو يتحدث عن فعل ثاني .

فقال : لقد حاول الملعون معاشرة أخته أثناء نومها .

تكلمت معه ، وكان في حالة سكر ورفض أي مساعدة وقال : لا تصدق ذلك ..إنها هي التي تتحرش بي .. لقد اشتاقت لزوجها اللعين ، اشتاقت لعشاقها بعد الطلاق .

ـ ما هذا الكلام يا ثاني ؟

ـ كان مازن مجرما يا مال ، كان لا يغار عليها ، يسمح لها بالنوم مع العشاق.

ـ لا أحب أن أسمع هذا الكلام يا ثاني .. قبل سنوات نصحتك بالتوبة والتدين ، ولو فعلت لزوجتك زوجة عفيفة شريفة .

ـ ليتني أصغيت إليك ..كان مازن اللعين يرسم عليّ للزواج من أخته العاهرة .

ـ لم يفت الوقت والأوان .. دع الشراب والمخدرات .

ـ لا تصدق أنني حاولت الاعتداء عليها .. هي توهمت ذلك وصدقته .. أنا دخلت غرفتها لم أكن أظن أنها تنام عارية مجردة من الثياب .. ظننت أنها خرجت من الاستحمام لعارض ما .. فاقتربت منها .. فتوهمت أنني أريد اغتصابها فصرخت وصرخت ، وذهبت للمطبخ وأخذت سكينا ؛ كأنها سكين فواكه وضربتني بها على ذراعي .

ـ حسنا يا ثاني ! إنني أصدقك أين أولى ؟

قال : في بيت خالتي أم مالك .

ـ حسنا ! متى ستبدأ التوبة ؟

ـ عليّ أن أتوب يا مال .

ـ بعد هذه السمعة عليك بالتوبة يا ثاني .. أنت ما زلت شابا يا رجل لم نبلغ الأربعين بعد .

تحمس ثاني موسى وذهب للحمام بعدما ضعف السكر ، واغتسل ، وبدأت توبته بعد ذلك الحادث المؤلم ، وعاهدني على ترك الخمر والمخدرات .

وخلال أشهر كان رجلا آخر فعلا ، وتبين لي فعلا أن حادث اتهامه بمحاولة الاعتداء على شقيقته وهما منها ، للوضع المريب ، وهو نومها عارية ، فحسبها قد داخت أثناء الاستحمام ، فأراد مساعدتها ، وهي استيقظت فتوهمت أنه حاول الاعتداء عليها .

ترك بيت الأسرة لما ترك الخمر والمخدر ، واستأجر بيتا خاصا في وادي النزهات حينا القديم ، وفرح والده الشيخ الكبير بذلك فرحا لا يوصف .. واقتنع بأن أولى بالغت في اتهامه ، ثم درس ماجستير شريعة ودكتوراه شريعة .. وعدنا أصدقاء أنا إمام صغير .. وهو دكتور شريعة في إحدى الدول .. وما زالت صداقتنا .

وكتبت لي أولى رسالة ترغب بلقائي لكشف سر تلك الليلة السوداء في صداقتنا عندما أرادت تقديم جسدها على مذبح الحب والشهوات إذا قابلتها في بيت والدها .

وعليّ أن أترك الكلام لأولى ؛ لتكتب فصلا من حياتها أو جزءا من أيام عمرها كما اتفقنا مع راوي هذه القصة صديقنا جمال شاهين .

أولى موسى

سأكشف أوراقي وأهم ذكرياتي لكاتب حياتي قبل الحياة التي تحدث فيها مال عن مراحل أيامه ومراهقته وتوبته المفاجئة .

أنا كنت في زمن تهرب فيه الناس من التدين والإيمان ، كان الصعود للفكر المزيف القومي والوطني واللاديني ، فليكن هذا معلوما لديكم ، ولا يعني هذا أنه لم يكن هناك متدينين وجوامع ومشايخ ، كان وجودهم صامتا خافتا ضعيفا ، لا اهتمام ولا اكتراث لوجودهم حتى معلمات التربية الدينية كان صوتهن خافتا ، ولا يبدين لك أنهنّ متدينات ، ولا تأثير لهن على الطالبات ، أخص من علمنني في المراحل الدراسية الثلاث .

نحن مسلمون بالهوية والاسماء فقط ، أنا دخلت المدرسة عام ستة وستين ، اليوم في نظري تغير الحال ، تغير كثيرا ، لما تعرفت على السيد مال الشاب الرفيع الأسمر كنا من أهل الدنيا ؛ وكأننا خلقنا لها فحسب ، ولا نعرف الآخرة ، وما فكرنا فيها إلا بقدر ضئيل وغموض ، لا أحد يتحدث بحرارة وقوة عن الدين ، أو لا يوجد حولك وقربك من يكلمك عن الدين .

قصتي تبدأ مع وجودي على ظهر هذه الأرض عندما خرجت صارخا من رحم أمي في مطلع الستينيات ؛ لذلك يجدر بي أن أتحدث عن زواج أبي وأمي ؛ لأنه كان لهم نصيب من الحديث في الفصل الأول من الذكريات .

عائلة أبي غنية ، وإن لم تكن من الطبقة العليا في المدينة ، وليسوا من الطبقة المتوسطة ،كنا بينهما ..كان والده موظفا في الدولة كما هو ، ويملكون عقارات وأراضي زراعية يتوارثونها ، وتدر عليهم مالا مستمرا .. هم من أبناء المدينة ، وإن تمتد الجذور إلى الريف.. فتاريخ العائلة يقول إنهم من الأسر الثرية ،لم يكونوا من أهل الفقر والفاقة كما علمت من تاريخ العائلة .. وبعض رجالها خدموا السلاطين الذين حكموا البلاد قديما ، وبعضهم كان يملك المراكب والسفن .. أقول ذلك الكلام ؛ لأن والدي موظف وزارة المالية ، ولا يعتمد على راتب الوظيفة والحكومة فحسب ، هناك دخل ودخول أخرى تمد بها الأسرة ؛ لأننا نعيش في بحبوحة من

العيش .. وحياة المدينة تختلف كثيرا عن حياة القرى والريف والبادية ؛ لذلك تجد فيها عائلات لا تعرف دينها عامة وخاصة .. وقد يكون التدين في القرى أكثر ؛ ولكن الجهل يغمره أكثر .

أقول ذلك ؛ لأنه لم يكن في بيتنا دين ؛ انها نحن مسلمون فحسب ، فلا نعرف الصلاة والصوم وطقوسهما .. فكنا نحتفل بالأعياد عادة ، من لبس وحلويات ، وتهاني ، وزيارات ، وقد يضحي الوالد وأجدادي وأعمامي كما يفعل المسلمون الموسرون .

فأبي لا يعرف الدين ، ونحوه أمي ، فهي من عائلة شبيهة بعائلة أبي دينا ومالا .. الأخلاق هي الدين فقط .

تخرج أبي من الجامعة القسم التجاري والاقتصادي ، والتحق بالعمل فور تخرجه في وزارة المالية للدولة حتى أصبح مع الزمن مدير الموازنة العامة للدولة ، وذلك في آخر أيامه الوظيفية وقد حصل على الماجستير والدكتوراه في المحاسبة والضرائب .

تعرف على أمي من خلال الوزارة حيث التحقت هي أيضا كموظفة في نفس الوزارة ، ولما تعرف عليها وتعارفا ، وبعد قصة غرام قصيرة تزوجا .

أبي عمل قبل أمي في الدائرة المالية ، وبعد عام من تعارفهما العاطفي تزوجا كأي زواج ، وبمساعدة والده جدي أمير بنى والدي بيتا في درب القلعة حيث التقيت بهال الدين .. وهو درب تجد به أحياء يسكنها الأغنياء ، وحي أغلب سكانه فقراء ، وحي خليط من الفريقين .. نحن في قسم بدا بداية للموسرين .. ومنهم من يعمل مع والديّ في الوزارة .

كان والدي موسى مجتهدا في عمله ، ومثله أمي ، أبي أكمل الدراسات العليا ، أمي توقفت عند الشهادة الأولى .. فيعتبر الوالد خبيرا اقتصاديا في الدولة والمال .. كان السيد الوالد محبا لأمي ، وإن تخلل حياته قبل الزواج علاقات عابرة مع الجنس الآخر وخلال البحث عن زوجة وحتى بعد زواجه له سقطات وهفوات وغراميات مع العاملات ، أمي لم يحدث لها من ذلك شيء .. وهي صامتة عن حياتها الخاصة قبل الزواج ، وأثناء الزواج وأبي يثق بها ويحبها كحب الرجل لزوجته وأم أولاده .. لم نعرف عنها الكثير سوى أنها زوجة مخلصة لوالدي الغالي .. وأبي الرجل

الصامت الذي لا يتكلم عن نفسه ، لكن نعرف عنه من سقطات اللسان من كلام وتعليقات بعض الأقارب وأصدقاء العائلة وزملاء العمل .. نسمعها على سبيل الدعابة والاستفزاز .. كان وما زال محبا للطرب وكبار المغنين الذين عرفهم في مطلع حياته .. وكان يحب السمر منذ أيام الشباب والمسرح والسينما خاصة الأفلام الكبيرة والمصحوبة بدعاية خلابة .

أبي يشرب الخمر أو الشراب ولا يكثر منها إلا في مناسبات وسهرات خاصة مع بعض رفاقه ، ويكثر منها في سهرات ماجنة ، وله براد خاص لها ، ولا يحب أن يشرب أمامنا .

ويقول : لما تكبروا افعلوا ما شئتم ، عندما تستقلون في حياتكم افعلوا ما شئتم ، لا يتعاطها أحدكم على حسابنا.

لم يحاول تعليمنا الشرب ، وأنا عرفتها بعد المرحلة الإعدادية خلال مناسبات عائلية وحفلات في النادي أو غيره ، وأحيانا أختلس من زجاجة أمي ، أمي تعلمتها من أبي ، ولا تكثر منها ؛ لكنها تشربها ، ولا تسمح لأبي أن يسكر أمامنا ، وهو غالبا في حجرته لما يستقر في البيت .

فالتدين كما نعرفه اليوم لم يكن له وجود في بيتنا ، ولا أقول ذلك لأبرر سوء أخلاقي فيما بعد ، فلا صوم ، ولا صلاة ، نسمع بهما فقط .. عندنا سجادة واحدة ، لما يصدف وجود جدنا يستخدمها، ثم تخفى في خزانة حتى يأتي مرة أخرى ، حتى جدنا عرفنا أنه صلى على كبر .. وهذا حدث مع أبي وأمي أيضا كما سأتحدث .. ولما تعرفنا على مال الدين لم يكن متدينا بالنسبة لنا ، وإن يتحدث عن صلاته وصومه ، لم أره يصلي في بيتنا ، أما الصيام فبدا لنا أنه يفعل ذلك ، وهو في الغالب ما يأتينا مساء بعد الغروب أو بعد العشاء خاصة أيام الشتاء ذات النهار القصير ، وحديث الدين ثانوي بينه وبين مال أو تعليق على تدين رفيق لهما في المدرسة واتهامه بالتدين الكاذب والسخرية منه .. والحق كان الفتى إذا تكلم في الدين تراه مبدعا ، ويزعم لنا أنه جالس بعض الشيوخ وشباب التيار الإسلامي ، ولم يستهويه التدين والأحزاب الدينية ، أو نراه كذلك لجهلنا بالدين .

أقول ذلك وأكتبه ؛ لتعلم أن ما نفعله لا يحاكم دينيا ، نحن نفعله بحكم العادة والتقاليد

والأخلاق التي تربينا عليها .

حياة مال تلك الأيام مثلنا أنا وثاني ؛ والحق أنه لم يشرب الخمر ، وصدقنا ذلك ، وأكد ثاني ذلك ولم يقرب النساء المتزوجات والعازبات كثاني، الذي له علاقات مع متزوجات ، وهو من مستوى اجتماعي فقير .. وفي البداية عجبت من صحبة ثاني له ، ولم نعرف أهله وإخوته ، أخي ثاني تعرف على بعض اخوانه فيما بعد ، فهو له أخوة كثر .

بعد زواج أمي هدى سالم وأبي موسى أمير بسنتين ولدتنا أمي ، كانت أول ولادة لها ، وضعت توأما ، خرجت أولا للدنيا ؛ ولذلك سميت أولى ، وبعد أقل من ساعة خرج شقيقي ثاني ، وقبلت العائلة هذه الاسماء ، ولدنا في مستشفى الأجنبي الامريكاني ، ويتعالج فيه الأجانب وجاليات السفارات من بلدنا ومن البلدان المجاورة .

لم نختار نحن أسماؤنا ، كان الاختيار لها من قبل أبي .

أبي كغيره من الرجال لا يحب الكثير من الكلام ، كان يحضر معه بعض الكتب والمجلات الاقتصادية العالمية يقرأها في المنزل ، كان عمله مستغرقا وقته ويتقنه ، وكان يملك سيارة منذ عمل موظفا صغيرا في الدائرة المالية للحكومة ، وبعد ولادتي بسنتين ولدت أختي علا ، ثم كان يزيد ، ثم توقفت أمي عن الحبل والولادة .

وقالوا كفى ، كان تأثير الحضارة الغربية على أسرتنا بينا واضحا وكبيرا وحتى على كل العائلة عائلة جدي وأمي وكأعمامي وأخوالي وخالتي ناعمة لها ولد واحد فقط ، لم يكونوا يحبون الكثير من المواليد بعكس الفقراء في البلد .

درسنا كغيرنا في مدارس الحكومة ، لم ندرس في مدارس خاصة السبب في اعتقادي قرب مدارس الحكومة من بيتنا .. مدرستي تبعد عن البيت أقل من نصف كيلو متر ، والذكور تبعد عن الإناث مثل ذلك ، لم تكن المدارس مختلطة في الغالب .. كانت الصراعات العسكرية محتدمة لأن البلاد بعد تفكك الدولة العثمانية انقسمت لدول بعضها خاضع للاستعمار الانجليزي وبعضها للفرنسي خاصة بلاد الشأم والعراق .. وكانت الانقلابات العسكرية كثيرة هنا وهناك .

كانت الألعاب والأطعمة توفر لنا بشكل جيد ودائم .. والدراجات واللعب في الشارع ، وأحيانا يأخذنا الوالدان لنادي الوزارة أو نادي المقاصد الأكبر حيث هو نادي الطبقة الغنية في المدينة ثقافي رياضي واشتراكات ، ولا يدخله إلا الأعضاء المساهمون .

الملابس حدث عنها ولا حرج كثيرة ومتعددة ، والاحذية كذلك .. كنّا منعمين ، ولم نشعر بحاجة لشيء أو نقص .. النادي يوفر لنا مجالات اللهو والأصدقاء والرياضة والمكتبات وألعاب الصغار المراجيح وغيرها حتى صالة العرض والمسرح الصغير يوجدان في نادي المقاصد الأكبر وقاعة الألعاب الرياضية والتنس .. ويمكن للشخص أن يختلط بالشبان والبنات الأكبر منه سنا سواء من أقاربنا أو جيراننا أو معارف والدينا ؛ لكن الإنسان يحب أن يصاحب ممن من جيله وعقله .

أحسست في مرحلة الإعدادية بتغير النظام في حياتي وحياة ثاني ، وإنني أصبحت فتاة بالغة تأتيها الدورة ، فعليها أن تبتعد عن الشبان من جيلها .. وتغير نظام التعامل معي في البيت ، وأن البنت تختلف عن الرجل بسبب الحيض ، وعليّ الابتعاد عن الذكور والعبث ،المهم.. أنني أنثى وشابة عليّ مرافقة الفتيات من جيلي ، وكان ذلك .

بدأنا نسمع الغزل والحب بين شاب وفتاة .. وهناك أشياء على الفتاة مراعاتها .. ونسمع عن المعاكسات ورسائل الغرام من المراهقين ، وأشرطة الأغاني تهدى للمراهقات والمراهقين .

وبدأنا نتعرض للمعاكسات والاشارات ، ونسمع بعض مغامرات الفتيات عن عشاقهنّ واصطحابهنّ لدور السينما والمطاعم والمشي في الاسواق والمتنزهات .. كنت أحب أن أسمع ، ولم أحب أن أمارس ذلك عمليا رغم محاولة بعض الفتيات جري لذلك الحب الساذج .. استسخفت الكثير من تصرفاتهن ومراهقتهنّ .. وحببتني أمي بالقراءة والقصص والروايات والكتب لتفريغ هذه العاطفة والرغبة .. فكان عشاقي وأصدقائي أبطال هذه القصص وصفحاتها ، واطلعت على قصص عربية وغربية وفرنسية مترجمة كأحدب نوتردام ، والكونت دي مونت ، والبؤساء المختصرة ؛ لأنني لما كبرت علمت أن هناك طبعة مطولة ، واكتفيت

بالمختصرة ، وكثير من القصص غير المشتهرة قرأت ، وكنت أصحب أمي وأبي للسينما والمسرح ولم أجد البطل المشاهد في الروايات والافلام على أرض الواقع تلك الفترة من حياتي ولكني رغبت أن يكون لي حبيب وصديق أتحدث معه وأحبه ويحبني ويحلق بي في الفضاء الواسع .

حاول بعض أقاربي من أولاد أعمامي وأخوالي أن يكون ذلك الحبيب والبطل ، ولم أستسغ ذلك لم أجد أحدهم ذلك البطل الذي رسمته في وجداني وأحلامي ، وانتهت المرحلة الإعدادية دون حبيب وصديق ، لم أعمل علاقة مع أي شاب قريب أو غريب ، لم أجد ذلك الفارس القادم على جواده الأبيض ؛ ليطير بي إلى عنان السماء ، لم أجده حتى أنني كنت أسمع كلمات جافة وحادة من بعض الفتيات لفشلي في تجربة هذا الحب ، وهذه المغامرات .. فبعضهن تحدثك عن شاب اليوم بغرام ووله ، وبعد أيام تسبه وتخونه، وتخون صديقاتها بأنها استولت عليه ، وأخذته منها ، وضحكت عليها عندما صحبتها أثناء مقابلة لرفيقها فانقلب إليها .. وقصص كثيرة نحو ذلك ، ثم وجدت آخر ، ثم عاد لها الأول نادما ومعتذرا.. أهذا هو حب جولييت وروميو ؟ .. وإذا علقت الفتاة بشاب أكبر سنا منها تجده راغبا في جسدها ، ويرغبها بالاستسلام للجنس وقضاء الشهوة .. ويحدث الفصام إن لم يحدث الاستسلام .. فهل هذا حب أم زواج أم عبث وسخف ؟! فكانت تحدث مآسي ومحاولات انتحار أو زواج قسري .. وتنحرف فتيات صغيرات إلى الرذيلة .. وتنقل من شاب إلى آخر .. وتفسد بنات ، وتنحرف أخريات باسم الحب .. هذه علاقات المرحلة الإعدادية .. أقول مضت ، ولم أجد لي حبيبا كما فعلت أخريات .. ابنة عمي عزة أكثر من عشرة شبان علقت بهم ، رافقت بعضهم لوسط المدينة ودور السينما .

ظهور مال الدين

انتقلت إلى المدرسة الثانوية للبنات ..قد يكون فيها أكثر من عشرة صفوف أول ثانوي .. وانتقل شقيقي الغالي ثاني نصفي الثاني إلى مدرسة ثانوية للذكور .. وقضى ثاني فترة عبث وتسالي كما يقول في فترة الاعدادية مع العابثات من بنات المدارس أو من بنات الجيران والشارع في درب القلعة .. عادة شبان الحي يذهبون لمصاحبة البنات في أحياء أخرى ، وكانت علاقته قصيرة معهن كغيره من الفتيان ، وحتى في النادي كانت حوله شلل من البنات .

انتقل إلى مدرسة بين درب القلعة ووادي النزهات في الحسينات وغيرها من الاحياء .. كانت تلك المدرسة تستوعب أيضا أعدادا كبيرة من طلاب الثانوية القسم العلمي ؛ لأن المرحلة الثانوية فيها عدة أقسام منها العلمي ويستطيع الطالب بعد الثانوية أن يتعلم كل التخصصات والقسم الأدبي يتعلم في الدراسات الأدبية والتجارية ، والتجاري يتخصص في أعمال التجارة .. وهناك القسم الصناعي والزراعي والفندقي والشرعي .. والبنات أيضا لهن تخصصات خاصة بهن كالخياطة والتمريض .

فيها مدرسة الحسينات التقى ثاني بمال الدين الشاب اليافع الأسمر النحيف الذي يشبه الهنود أو اليمنيين لونا وبنية .. التقيا لأول مرة ، فقد جاء من مدارس وادي النزهات للقسم العلمي .. فالناجح فيه يدرس طب هندسة قانون ادارة أدب مجاله واسع .. تعرف عليه في ملعب كرة اليد كلاهما يلعبها أو يهوى لعبها ، وثاني تعلمها في نادي المقاصد ، على أثر نزاع بينهما على هدف محسوب أو ملغي تعارفا ، ثم ترافقا وتصادقا فوق العادة ، وتطورت صحبتهما ، وجمعهما سوى الرياضة الدخان ، ثاني يدخن لإكمال صورته أمام حبيباته المراهقات ومال لم أعرف لماذا تعلم الدخان ؟ .. كان ثاني من النادر احضار أصحابه إلى داخل البيت ؛ لأنه لا يحب جلوس البيت كثيرا .. دائما خارج البيت مع أبناء أقاربنا أو أبناء الجيران من جيله أو من أبناء أحد الناديين . كان مال من شباب المقاهي ، في فترة ما بعد المدرسة .. ويذهب لمقاهي وسط المدينة .. وله مقهى مفضل علمته طبعا فيما بعد اسمه مقهى الذهب في سوق الذهب .. مقهى كبير .. ويغلق بابه

ليلا عند منتصف الليل ، وهو يجلس في مقاهي النزهات والحسينات وحتى درب القلعة .. فالمقاهي كالمساجد منتشرة في الأحياء للشباب والكبار .. يلعبون فيها ألعاب الورق والشطرنج وتدخين النرجيلة ونقل الاخبار والتعليق عليها .

لما يكون مارّا من دربنا نحو مقاهي قلب المدينة ، ومن أمام منزلنا يصفر لثاني فيخرج له في الشارع ، ويرافقه للمقهى أو وسط المدينة .. وأحيانا يرافقه للسينما إذا كان هناك عرض لفلم جديد .. كلاهما يذهب للسينما.. أما المقاهي فتعلمها ثاني من مال ورفاقه في المدرسة أو الحي .. وأثناء العودة ليلا تراه يوصل ثانيا لباب البيت ، ويتابع طريقه سيرًا على القدم جهة وادي النزهات .. لا يهاب المشي في أنصاف الليل ، واعتاد على ذلك كما يقول ثاني .. وكان يقول لأمي زميل المدرسة وفي ملعب كرة اليد ، ومحترف في لعب الورق .. فأمي تلعب الورق مع بعض الزميلات.. أمي تدخن وتشرب القليل من الخمر، تزعم أنها تعلمت ذلك من أبي .

قبل نهاية الفصل الأول من الأول الثانوي دعاه ثاني لدخول البيت على غير العادة ؛ لكننا نعلم من كلامه معنا عنه قوة الصداقة بينهما خلال هذه الشهور ، فهما لا يفترقان في المدرسة إلا أثناء الدروس ، دعاه ثاني لشرب الشاي فهما مغرمان به ـ هذا طبعا علمناه فيما بعد ـ وكان معهما يومئذ شاب ثالث صديق لمال ومن حي النزهات ، وهي المرة الأولى والأخيرة التي دخل ذلك الشاب منزلنا العتيد ، نحن كان ينظر إلينا أننا أغنياء ومن الطبقات العليا مع أننا غير ذلك ؛ لكن ذلك الجزء من الحي هكذا كانت صورته عن باقي أحياء درب القلعة .. جلسوا في صالون البيت ، وقدمت لهم أمي الشاي ، وتعرفت عليهما ، وشجعتهما على الدراسة والمدرسة وبينت لهم أهمية النجاح .. وانصرفت ، وأثنت أمي أمامي على مال من أول جلسة .. كان يخجل كما تقول من التحديق والنظر إليها بعكس زميله الثاني ؛ كأنه كان متعجبا من جلوس أم ثاني معهم ولو لبضع دقائق .

أما أنا فلم أكترث لهما ، ولم يكن أمر دخولهما مهما لي ؛ ربما تسألت لا شعوريا كيف أدخلهما ثاني لبيته ؟.. نحن البنات أنا وعلا أمر دخول زميلاتنا وجاراتنا إلينا أمرا معتادا.. لم يكن حدث مهما

وهكذا نظرت لزيارة مال ، لولا اهتمام أمي وحديثها عن مال أمامي لم أعر ذلك الزائر أي اهتمام . فنحن لا نعرف أصدقاء ثاني من الحي أو النادي ، فهم يظهرون ويختفون مثل رفيقاته.. ليس له صديق دائم ؛ لكنا أدركنا أن علاقة مال وثاني فوق العادة وقوية .. فهو يتحدث عنه أمام أمي قبل أن يدخل البيت لشرب الشاي .. وكان ذلك من خلال الملعب والمقهى والرياضة والمدرسة . بعد هذه الزيارة للبيت بأسبوع حضر مال مرة أخرى ، ورحبت به أمي مرة أخرى .. وهو كالعادة يأتي بعد الغروب إذا أراد الدخول .. أما إن كان لديهم سينما أو مقهى يلتقيان قبل الغروب ويمشيان لوسط المدينة .. فلا يبعد قلب المدينة عن درب القلعة كثيرا .. أما إذا كان السهر في البيت لدراسة أو اختبار يأتي بعد المغرب أو العشاء .. ويظل عندنا لنصف الليل وأكون عادة مستيقظة إما بقراءة رواية أو مادة دراسية .. وقليلا ما يكلفني بصنع الشاي أو القهوة .. أمي تفعل ذلك حتى تنام .. وأحيانا ثاني نفسه يفعل ذلك عندما يدخل مال المرحاض .. أبي وأمي في بعض الأمسيات يذهبان للسينما أو المسرح أو زيارة أو مناسبة فيأتي مال ويسهر مع ثاني .

قبل نهاية الفصل أخذت زيارة مال تتكرر للبيت ، وإذا لم تكن أمي في البيت أنا أصنع الشاي لهما ، ويقدمه ثاني له لا أدخل عليهما ، ولم أفكر يوما بالتعرف عليه ، لم أكن قد وصلت لهذه المرحلة ، وكما لا أحب دخول ثاني عليّ وأنا مختلي مع صديقاتي .. فلا أسمح لنفسي بذلك ، ثم أنا بنت .. وصرنا نسمع باسم مال يتردد في بيتنا .. تعرف عليه والدي ، وأثنى عليه ووصفه بالجيد ، ويزيد أيضا تعرف عليه ؛ ولكنه ينسحب لغرفته .. يزيد لا يحب الجلوس مع ثاني كثيرا .. فهما لا يتفقان في الميول والطباع .. له رفاقه وشلته .

كانا يذهبان للسينما معا ، لم يعد ثاني يرافقنا إلى العروض الجديدة في البلد .. وهو من قبل مال كان مقلا من صحبتنا .. ويذهبان معا للمقهى مخبرا لأمي .. أو يذهبان لمطعم للعشاء .. كانت أمي تحب معرفة أين نحن ذاهبون ؟ ولم يكن ثاني يرى في ذلك تدخلا .. هو يعلم كم تحبه أمه ! وكم هي متعلقة به ! كان ذلك واضحا لنا في البيت ، ولا يعني ذلك أنها كانت تميزه عنا ..

كان ثاني معجبا بصديقه مال للغاية ، ويبدو أن مالا مثله في الإعجاب والصداقة رغم ما بيننا وبين مال من الفارق المالي ، وتكرار الزيارة يدل على ذلك ، ودخوله البيت يدل على ذلك ..كان يغيب أسبوعا أو أكثر قبل أن يزورنا في البيت ، ومرات يوميا ؛ كأنهما يتفقان على ذلك في المدرسة .. وقلت لكم كان سهرهما يطول لنصف الليل في الغالب ، وكلما مررنا قرب باب الصالون نشم رائحة التبغ ، ونسمع ثرثرتهما ومرحهما .

مضى الأول الثانوي دون أي اهتمام زائد مني بمال ، رغم كثرة تردد اسمه في البيت من قبل أمي أو ثاني .

حدثني ثاني عن شغف مال بالقصص والكتب خارج كتب المدرسة ، وعن حبه للألغاز والمغامرات وارسين لوبين وشارلوك هولمز وأجاثا وديماس وزيفاكو وغيرهم ممن تكثر ترجمات أعمالهم في المكتبات التجارية .

لم يظهر مال خلال عطلة الصيف إلا مرات معدودة ، علمنا من ثاني أنه يشتغل لينفق على نفسه ورواياته ، وأنه لم يكن من الأغنياء مثلنا يجد من يصرف عليه .

المهم أصبح مال معروفا داخل الأسرة نسمع ونهتم بأخباره من ثاني .. وهذا يتحدث به لوالدتي التي كانت تسأل عنه بشكل دائم ومعجبة بصداقته لثاني .. فهو لا يشرب الخمر .. أمي لا تحب الخمر ؛ إنما تشربها مجاراة لوالدي وأصدقائهم نادرا ما تسكر وتثمل .. ولا يعرف البنات حتى أن ثانيا قلّت مغامراته النسائية ومواعدتهنّ .. فكنت أشعر أحيانا بالغيرة من حب أمي لثاني .. وكان ثاني يحدثها بكل شيء من أخباره في المدرسة والأماكن الأخرى .. ومرات بالتفصيل الممل وتصغي إليه بكل كيانها حتى يصمت ، أما أبي فلم يكن كذلك ، هو يجلس قليلا معنا أو يعالج مشكلة معنا ، ويدخل غرفة نومه ، ولا يخرج منها للعشاء معنا .. ونحن نرى أنه يفعل هذا ليسكر وحده ، فلا يحب أن نراه يشرب ، وأحيانا يخرج لنا وهو ثمل ويتحدث مع أمي بعصبية أو صراخ ويعود لحجرته ، وقد لا نعرف سبب هذا الانفعال ، ولا نهتم عادة لماذا فعل ذلك ؟

هكذا ظهر السيد مال الدين في بيتنا وبيننا كصديق لتوأمي ، كانت نفسي تراودني بالتعرف على

مال والحديث معه كما تفعل أمي ؛ لكن كانت هناك حواجز لم تكسر .. هو صديق أخي .. وهو ذكر وغريب عن العائلة ، لا يمت للعائلة بأي صلة.. والذي دفعني لهذه التفكير أيضا طول صحبته لمال وحبه للقراءة ؛ كما يكثر ثاني من تكرار ذلك أمامي ؛ كأنها إشارات للقاء به .. أنا أبناء العمومة والخالات وغيرهم لقاءات قصيرة وعابرة تحية وسلام ووداع عندما يزورننا أو نزورهم أو نراهم في النادي أو في نزهة ورحلة عائلية .. أمي هذا ما كانت تسمح به .. أمي كانت تريد مني ومن شقيقتي أن نصل لبيت الزواج بدون مشاكل وذكريات سيئة وقصص لا أخلاقية، وتقول أهم شيء للفتاة سمعتها وشرفها ؛ لذلك ما كنت أحب التمشي مع الشباب أقارب أو أباعد ، وعندما أجلس في مكتبة النادي إذا حاول أحد الشباب الاقتراب وفتح حوار لم أرد أتجاهله أو أغادر ؛ لأن الشاب إذا وجد صمتا انصرف .. وأدرك أنني لا أحب مرافقة الذكور فينصرف .. البنت هي التي تسمح له بالتمادي ، وسيجد ضالته في غيرها ؛ فإذا تعلقت ببعض الفتيان ، ثم تركتهم أو تركوها تبين لها أنهم يريدون الجسد ليس الروح .. يتحول اللقاء معهم للحديث عن الجنس والاثارة سواء مع القريب أم البعيد .. وإما أن تستسلم الأنثى لهم للعبث بها أو تهرب قبل فوات الأوان .. قبلني أحد الأقارب فغضبت منه ، وغضبت أمي ، ولم يعد يسمح له بدخول البيت .. كانت أمي حريصة أكثر منا في مثل هذه العلاقات الطائشة كذا تسميها .

كما ذكرت لكم علاقتي مع الجنس الآخر من الأقارب لم تتطور مع أحدهم إلى علاقة عاطفية وغرامية ؛ لأن الزواج لم يكن في مقدمة أولوياتي .. الجامعة أولا .

وذكرت لكم أن مالا دخل بيت الأسرة في الأول الثانوي لي ولثاني ، وأصبح صديقا للأسرة بشكل عام ومقبولا وعلى غير العائدة ؛ لأننا لم نعرف خلال السنوات الماضيات صديقا ثابتا لثاني ، صديقا دائما .. فهذا جعلنا نهتم بالأمر إلى حد ما حتى أن أمنا كانت تبش له وتقبله ، ولم يعترض هو ولا ثاني ؛ وكأنه ابن لها .. لم أفكر في ذلك إلا فيما بعد طبعا .

وكان أبي قد تقبله صديقا لثاني ، ولم يحتج أو يعترض هو الآخر رغم خطورة المرحلة ، واقترابنا

من الثانوية العامة التي ستنقلنا لمرحلة مهمة ومصيرية .. فكان يخرج من غرفته يسلم والجلوس بعض الوقت ، ويدخل لحجرته ؛ فكان من طبع الوالد المكث في حجرته ، وأحيانا كثيرة يغلق الباب بالمفتاح ؛ ربما لمعاقرة الشراب دون ازعاج ، وتطرق أمي الباب عليه إذا أرادت الدخول ويفتح لها .. وعادة أمنا تبقى معنا حتى ساعة النوم نومها .

كنت أرى مالا من النافذة أثناء عبوره بوابة البيت ، فعرفت صورته .. فهو يقرع الجرس ، وهو يعلم أنه في البيت ، فيخرج له ثاني ؛ لأنه على ما أعتقد يرتبان لذلك في المدرسة ، لم يصدف أن رن الهاتف من أجل ذلك ؛ لأنني في الغالب من يرد على الهاتف ، ويزيد أحيانا .. يكون البيت خاليا في أول النهار غالب الأيام .. نحن نذهب إلى المدارس والأبوان للوظيفة إلا أيام العطل أو عطلة أحدنا لظرف ما ، ويرجع الأبوان مع العصر الرابعة مساء صيفا وشتاء

لم تكن لديّ رغبة في البداية إلى التعرف إلى مال الدين أولا إنه شاب وثانيا ثاني لا يحب ذلك ، ولم يحدث أن عرفني على شاب من معارف النادي وغيره وثالثا أمي لا تسمح بذلك لقريب فكيف بغريب ؟ لكن علاقة مال بالعائلة على غير ما عهد في الماضي .. والشاب له سنة في صحبة أخي ، وما زالت صحبتهما مستمرة ، وهذا لم يعهد في ثاني .

أبي لا يتدخل في حياتنا منذ الصغر ترك المهمة للوالدة هدى سالم . في عطلة الصيف لم يحضر مال لبيتنا إلا مرات معدودة ، وكانت يوم الجمعة حيث تخرج العائلة في رحلات خلوية أو حدائق عامة كبيرة ، وإذا لم يخرج ثاني معنا ندرك أن مالا سيزوره ويتغديان في مطعم ، ثم تكون الزيارة والسهرة .. فهما يهويان مشاهدة الافلام السينمائية وأكل المطاعم والمقهى يلعبان بعض الوقت ويقفلان للبيت وإكمال السمر .. كان ثاني يتحدث معي بذلك عن نشاطه وصاحباته ومعارفه وأنا أسمع ؛ وكأنني لا أسمع ، ولم أعجب بمال إلا أنه قارئ مثلي .. لا أهتم بالرياضة لعبا واعلاما أو لعب الورق .. كنت مرات أخذ سيجارة من أمي كنت مدخنة ربما في الأسبوع مرة ولم يكن ذلك ممنوعا كان متروكا لذوقنا .. فكثير من فتيات النادي الأول والثاني تدخن .. نادي المالية فقط لأعضاء الوزارة ولعائلاتهم .

لما جاء الثاني الثانوي حدثت تطورات بالنسبة لي ، استمرت الصداقة بين ثاني ومال سواء في المدرسة في الشوارع في البيت والأخير هو المهم بالنسبة لي وكان يأتي وحيدا كما تعودنا في العام الفائت ، الشاب الذي رافقهم مرة لم يعد ؛ لذلك نسيناه .

كانت أمي ترحب بمال كما تعودت ، وأصبح صديقا لها ، وتطبع على خديه قبلاتها كما تفعل معنا .. كيف حدث هذا ؟! لا أدري ؛ بل تجلس وتتحدث معهم ؛ كما تتحدث مع رجال النادي كانت تدخل عليهم بالشاي والمكسرات ، وأحيانا تقدم لهما عشاء خفيفا ، وتجلس تسمع لكلامهم وتعلق وتناقش .. فأدركت أن الأمر تطور كثيرا ، وأن الشاب أصبح ابن العائلة ، لا صديق فحسب ، ولم تفسح لي المجال للتعرف عليه ، ومشاركتهم الجلسة مع أنني لمحت لها بذلك .. فلم تدعوني لفعل ذلك .. وثاني رغم أنه يحدثني عنه لم يدعوني لذلك ، ولم يمنعني .. وأبي أحيانا على غير العادة يطيل الجلوس معهم ، ويتناقش مع مال بأمور غريبة علينا حول الأخبار والسياسة وهذا لم يكن من طباع أبي في البيت ، ثم كان يشجعهم على الدراسة والاستعداد للعام القادم .. هذا التطور حدث من أول شهر في السنة الثانية ؛ إنهم لا يحبون السهر في الخارج لثاني ؛ فكأنهم وجدوا ذلك أفضل من خروجهم للمقاهي ، ولم يعودا يلحان على ثاني لمرافقتهم إلى مشواريهم وعروضهم المسرحية والزيارات والحفلات الغنائية.. فأخذت أفكر جديا بالتعرف على هذا الشاب الذي غير سلوكيات في البيت دون إرادته بالتأكيد ، وقلت ما دام الشاب صديق الأسرة لماذا لا أتعرف عليه مثلهم ، وقد أصبح مقبولا ؟

خرجت الأسرة لشراء ملابس وسهرة ، فآثرت البقاء ، واعتذرت عن الخروج معهم .. وجدتها فرصة بريئة للتعرف على مال ، وتطوعت لتقديم الخدمة لهما بدلا عن أمي ، ولم يعترض ثاني على ذلك ، لما جهزت لهما الشاي لبست ملابس جميلة ، لم أدخل عليهما بالبيجامة وثياب البيت ، طرقت الباب بلطف .

فقال ثاني : ادخلي يا أولى.

دخلت وسلمت ووضعت الشاي على طاولة أو منضدة وحييت الشاب وقلت بحياء قبل أن

أصبه : أهلا بالأخ مال الدين .

فبادر ثاني فقال : هذه توأمي يا مال ، ولدت قبلي بزمن يسير .. نحن توأم .. وسبق أن حدثتك عن ذلك ؛ فسميت أولى ؛ لأنها ولدت قبلي، وسميت ثانيا

كنت أسكب لهما الشاي ، وتابع : وهذا حبيبي مال الدين حسين رفيق المدرسة والملعب والصف .. لقد انتقل لصفي يا أولى .

تمتم مال مرحبا وفعلت مثله ، وأدركت بقوة عمق الصداقة بينهما ؛ كأنه يعرفه على زميل .

وعاد مال يقول : أهلا بالآنسة العزيزة أولى .. تشرفنا بالأخت العزيزة ـ وكان يشير إليّ بالجلوس ـ أخت حبيبي ثاني .. فأنا مثلك أحب المطالعة كما يحدثني ثاني عنك .

ثاني يحدثه عني عجبت ، وعجبت لجرأته أيضا فهو يتكلم ؛ كأننا أصدقاء منذ عهد بعيد .

نظرت لثاني الذي قال دون حرج وتردد : نعم ، هو مثلك في حب الروايات المملة .. يموت في القصص والقصص الفارغة منذ الطفولة .. نحن من نفس السن يا أولى ؛ وربما ولد يقرأ .

وضحكوا وتبسمت وتعجبت من كليهما ؛ كأني أجلس معهم من قبل قرن ، وكررت الترحيب بمال وشكرته وقلت وأنا أقف: تريد شيئا آخر يا ثاني .

فقال : ما دام أهلك في الخارج اجلسي معنا .. فمال أصبح من العائلة كما تقول أمك وابن لها ؛ ولعلك تجدين بعض القصص التي ليست عندك .

عدت للجلوس وأنا مصدومة من تصرف ثاني ، فجلست قبالتهم ، وعدنا أنا ومال نرحب ببعضنا ونختلس النظر ببعض .. وبدأ أنه لم يجلس مع فتاة قبل هذه المرة رغم جراءة كلامه لي في أول لقاء .. وأخذنا الحديث عن القصص والروايات بسرعة ؛ ولعل أول رواية تحدثنا عنها إحدى روائع يوسف السباعي ، وتحدثنا عن بعض مسرحيات شكسبير ، ووجدت لديه اطلاعا رائعا ، وبعد حين استنزفنا معلوماتنا واستعراضنا كمجاملة.

فقال لي ثاني : كيف ترين ثقافة مال يا أولى ؟

ضحكت وقلت : صاحبك قارئ عميق ! يقرأ شرقا وغربا .. فهو يقرأ عربيا وغربيا .

وبعد نصف ساعة استأذنت لأحضر لهم شيئا آخر فقال مال : الشاي يكفي يا عزيزتي أولى! أنا سررت بالتعرف عليك .. فقد أكثر أخي ثاني بالحديث عن ثقافتك وحبك للقصص .

شكرته وقلت لثاني: أتشربون القهوة ؟

قال : لا بأس .. أنت لماذا لم ترافقي العائلة ؟

فقلت دون تردد : شعرت بالتعب اليوم ، ولا رغبة لحضور المسرح .. وعدت نهى صديقتي في المدرسة بأن نحضرها معا .

ـ القهوة يا أولى قبل أن تنامي .

هكذا بدأ أول جلوس لي مع مال ، تعرفت عليه تلك الليلة مباشرة كضيف وصديق للعائلة ووجدته شابا مثقفا ومهذبا وحييا رغم تظاهره بالجراءة للحديث معي أو هو جريء بالكلام حقيقة ؛ كأنه لا يخاطب فتاة لأول مرة يجلس معها أو من كثرة حديث ثاني له عني وحبي للقراءة بدا ؛ كأننا أصدقاء .. وثاني كما ذكرت سابقا كان يحدثني عنه بدون تحرج ، ولا أعتقد أن أخي يظن أنه ستحدث قصة حب بيننا من لقاء .. فأخي فاشل في علاقاته مع الجنس الآخر لم أسمع له قصة في ذلك تستحق الاهتمام ، صحبة سريعة وفراق .

أدخلت القهوة ، وخرجت متظاهرة بأنني شبعت من الحديث معهم عن الأدب والروايات .. الحق أنني كنت مبهورة بمال ، ورغم صغر سنه كان قارئا ممتازا بدا ذلك من خلال اللقاء ، لم يكن دعي ، وعلمت أنه لاعب شطرنج ممتاز من خلال كلامنا .

لما رجعت الأسرة تلك الليلة كان مال مغادرا ، وثاني نائما ، وأنا مستيقظة وظللت في انتظارهم لأرى الملابس الجديدة ، ولم أحدث أمي عن جلوسي لمال ، تركت ذلك لثاني الذي لا يخفي شيئا عنها .. لقد رغبت بالجلوس معه ثانية ، لم تكن رغبة حب وعشق ، فبيننا فارق طبقي كبير ؛ فأنا ثرية كما قلت لكم بثراء والديّ ، ومال فقير كما علمت من أمي وثاني ، واجتياز ذلك الحاجز ليس من السهولة بمكان .

غاب مال أياما قبل العودة لسهرة أخرى والحديث عن الأدب والقصص ؛ لذلك قلت لثاني:

لقد وعدت ـ كما تعلم ـ مالا صاحبك بثلاث روايات .. هل تأخذها له ؟

قال : لا داعي لأخذها له في المدرسة عندما يأتي أعطيه إياها .. أنا لاحظت أنه أعجبك الحديث معه عن الروايات وانسجمتما معا .

أجبت ملاحظة أخي : كان واعيا يا ثاني لما يقرأ .. تظن أنه يحفظ الرواية عن ظهر قلب .. أنا بنت ووقتي في البيت أكثر منه كما بدا من كلامك فأتأمل وأدقق فيما أقرأ ، فظهر أنه يقرأ أكثر مني وأنا أقرأ أقل منه، ومع ذلك كان يعرف الكثير من التفاصيل في قصة شكسبير عطيل والملك لير .

قال معجبا : عندما يتحدث مال عن قصة يا أولى يستطيع تلخيصها بكلمات .. ويستطيع تفصيلها ؛ كأنه يقرأها لك بفقراتها .. حسب رغبة المستمع .. وهو يحب الشعر ، ويحفظ عشرات القصائد في الشعر القديم المعلقات والحماسة والحديث كشوقي والبارودي.. الشعر الحر يقرأ منه ؛ ولكنه لا يحبه ، ولا يراه شعرا .

ـ لا يراه شعرا ! وماذا يراه ؟

تبسم وقال : هبلا وضحكا على الناس ؛ لذلك يقول لي هذا عمره قصير لا يبقى إلا في المكتبات .

ـ شوقتني للجدل معه .

قال : اعلمي أنه يكره الجنس الآخر .

ـ يكرهنا !

ـ حذر .. لا صديقة له .. يكتب رسائل غزل للبنات لأصحابنا .

قلت : كيف كان يحدثني ؛ كأننا أصدقاء من قرن ؟

قال : ربما من كثر حديثي عنك ؛ وربما لصداقته لأمي .

قلت : بماذا يتحدث مع أمي ؟

تنهد ورد : ألم تحدثك أمك عن ذلك ؟

ـ ولماذا تحدثني عنه ؟!

قال مؤكدا لي اعجابه بصديقه مال : لا أحد يجلس معه جلسة شاعرية إلا فتن به .. هو يحضر الفلم مرة واحدة يصبح ؛ كأنه هو كاتب سيناريو الفلم أو قصته .. لابد أن تجلسي معه أكثر ؛ لتستمتعي بالحوار معه .

فقلت : أمي قد تعارض جلوسنا مع غريب .

قال بثقة : لا، ذكرت أمامي كذا مرة ، لو جلست معك أولى لسرت من الحديث معك حول القصص والكتب .

قلت استغرابا : أمي قالت ذلك!

قال : أمك مثلي مسرورة بصداقتنا .. فهي تحدثه عن مشكلة بينها وبين صديقة لها في النوادي في الدائرة تجد لديه أفضل الاقتراحات لحلها .. فهو مثقف في الدين في المجلات والفن .

تفاجأت بما أسمع من ثاني ، وكدت لا أصدقه .. أمي تناقش مشاكلها مع مال الشاب الصغير !ولكن أعلم أن أمي تجلس معهم في الغالب إن لم تكن في خارج البيت .. ومهد لي ثاني بهذا الحوار العودة للحديث مع مال بدون أي حرج وأي محظورات .

وقال : تجدينه يعرف تفاصيل القصة رغم كثرة قراءاته .. وبعض القصص يقرأها أكثر من مرة ومرات .. ويعلق لو فعل المؤلف كذا لكان أفضل

قلت : أوه ! يريد أن يعدل على فكر الكاتب وخياله.

قال : هو يقول الكاتب يقول ما يقول ربما الفكرة التي عندي لم تأت بخياله .. ومرات يحصر الكاتب الحل باحتمال أو اثنين.. فيقول هناك احتمال ثالث ورابع ؛ لكنه أي الكاتب يعلم أن القارئ لا يهمه التفكير يهمه القراءة والانتهاء منها .

قلت : هذه فلسفة .. فعلا لمست بالوقت القصير معه أن عنده شغف .. وجدت من يسابقني.

ـ مال بعد انصرافه مغادرا من عندي يظل للصبح يقرأ لا ينام قبل قراءة رواية أو قصة كاملة .

ـ والمدرسة !

قال : يأتي .. لا يحب الغياب.. قد يقرأ بعض القصص ذات الحجم الصغير في المدرسة .. يقرأ

ذلك أكثر من كتب المدرسة .. وعند اللعب يلعب حتى يمل .. سواء في ملعب السلة أو كرة اليد حيث بدأت حكايتي معه .

سألت : ما الذي جمعكم ويجمعكم ؟

قال : أنا عرفته من خلال ملعب كرة اليد ،كنّا نلعب سوية ضمن فريق واحد أو خصمين .. وهو هذا العام انتقل لصفي .. فصرنا أبناء صف واحد .. وهو جيد في الدراسة ؛ لكن لديه ضعف في مادة اللغة الأجنبية ومادة الرياضيات إلى حد ما .. الكمال لله وحده .

عدت أقول : المهم لديّ روايات جديدة لو أعطيته إياها .

ـ عندما يحضر يا أولى أفضل ، وإذا أحببت فاستعيري منه .. فهو يملك الكثير ، ويفقد الكثير لدى الشباب .. فهو يوزعها بين زميل وآخر .

ـ أخشى أن لا تسمح أمك بالجلوس معكم .

قال كأنه غير مصدق بمنعها : أمي لا تسمح ! هي تجلس معنا .. هذا الأمر لك .. فمال شاب محترم ، وأثق به ، ويحترم التقاليد والبيت .. وهو يحب من يسمع له عن الأدب والشعر .. إنه يقول الشعر ، ويرسم أحيانا .. هواياته كثيرة يا أولى .. والشاب لا يحب البنات والمغامرات العاطفية .

ـ قلت ذلك ؛ ولكنه شاب مراهق .

تبسم وقال : هو يكتب الرسائل للعشاق كما قلت لك .. ويقول لي هذا دليل كذب هؤلاء المحبين .. غيرهم يكتب لهم فأين الحب والمشاعر ؟ هم يبحثون عن التسلية .. وهو لم يحاول لنفسه إلا مرتين ، ثم ندم كما قال لي .. وأبدى اعجابه بك خاصة حبك للقراءة .

ـ قال لك ذلك .

قال : نعم ، إعجاب قراءة ،لا إعجاب شاب بفتاة هوى وغرام .. فهو يفتن لما يجد من يقرأ مثله ويطالع مثله .. ولو كانت أولى .. ويحب من يسمع له ويناقشه في قراءته .. يقول نمتحن الذاكرة .. من أجل هذا أعجب بك .

ـ أخشى أن يجبني ما دام يكره جنس النساء!

قال : لا أعتقد أن يصل الأمر إلى ذلك .. هو لا يحب مرافقة الشباب لمدارس البنات للصيد كما يقول .

ـ ليصيد فتاة ! وضحكت أولى

وتابع شقيقي : وهذا ما يفعله بعض الزملاء .. بعضهم يذهب لمرافقة صديقته أو حبيبته لبيتها .. مال لا يستسيغ هذا الهبل كما يقول .. ويقول تضيع ساعة أو أكثر في التسكع والكلام الفارغ .. وأيضا نحن أصدقاء فلا أظن أن يغدر بنا .. وأنا أعتبرك أعقلنا في البيت .

ـ لكني أنثى ولي مشاعر وعواطف .. قد أحبه أنا .

قال بهدوء : ممكن .. لكني لم أسمع عنك شيئا من هذا القبيل .

ـ لم أجد الفارس الذي أهام به .. قد يكون مالا . ضحك شقيقي وقال : لا أعتقد .. فالشاب محترم .. ونحن نحن.. وهو شاب فقير يعلم ما الفرق بين أسرتينا إلا إذا أنت عشقته كما يحدث في بعض القصص ..الأميرة تحب الفقير و .. و.. و ..

ضحكت وقلت : وهذا يحدث في الروايات وفي الواقع .. أنت تثق به لهذه الدرجة .. وهذا حب كبير منك له .

ـ أعز صديق ؛ بل هو صديقي الوحيد اليوم ، حتى أمي اقتنعت بصداقتنا ، وتحدثه عن صديقاتها ونوادرها في النادي ومع الجارات .

قلت : هذا ما يثير الدهشة !

فقال : وأنا أثق بك .. وأنا لا أمنعك من الحب ، ولا دخل لي بذلك ؛ لكن لا أحب أن أخسر مالا يا أولى .. وكثيرا ما ذكرت اسمك أمامه .. نحن توأم .. فهو يعتبرك أنا.. وأنا فكرت قبل نهاية الفصل الماضي أن أعرفك عليه ؛ لتتحدثنا عن هوايتكما المشتركة القراءة للروايات .

ـ أنت تغامر بعواطفي يا ثاني .

ـ صحيح لم يسجل عليك صحبة شاب في النادي أو الشارع ؛ لكنك تتحدثين مع أولاد العم

والخال بأدب واحترام .

قلت : لم يعجبني أحدهم لأحبه .. أنا أرغب بالجامعة قبل الحب يا ثاني .

ـ كلنا يريد ذلك .

قلت لنفسي : عجيب أخي في هذا الحديث ! هل يرغب لي بحب مال.. هذا غير معقول طبعا .. ويتحدث عني لمال ؛ كأنه يتحدث عن فتاة لا تمت له بصلة .. وثاني نادرا ما يشرب الخمر لأقول كان ثملا ؛ لكني طربت لصراحته وشجاعته ؛ ليتحدث معي بهذه الصراحة عن موضوع حساس ودقيق في نظر الناس والأسرة .. فهو لا يخشى عليّ من عشق صاحبه .. هل لأنه لم يسجل عليّ قصصا قبل ذلك.. فرآني عاقلة ومحافظة إذا صح التعبير .. فها هو مال يرى مثلي سخافة هذه العلاقات ويعتبرها هبلا .. ويكتب رسائل ويسخر من ناقليها لمحبوباتهم وهي تحمل أفكاره ولغته.

فقلت : شكرًا ثاني إنني أحبك أنت .. وشكرا لثقتك بي .. أنا مثل صاحبك أعتبر هذه العلاقات أسخف من السخف .. عاطفة مزيفة يا أخي العزيز

قال : نعم ، بينكما أشياء متشابهة .. تعودنا على حسن تصرفك .

احتضنت شقيقي بحب ، وقبلته من رأسه ..كان لقاء غريبا من ثاني وجريئا وصادقا .

الصداقة

حضر مال بعد هذا الحوار الجريء والصريح بيني وبين ثاني ، وإنه لا يعتبر جلوسي مع صديقه محرجا له ، وسمحت أمي لي بالجلوس والحوار دون أي مانع لما علمت عن جلوسي القصير معهم منذ فترة ، ودردشة مال معي.. لم تَر خطرا عليّ من الحديث معه ، والحديث يدور داخل البيت وبوجود ثاني .. وتقبل مال وجودي معهم ، ولم ير في ذلك أي حرج .. وهذا ما عبر به صراحة لأمي .

فقال : أولى أختي كما أنت والدتي . فهو يعتبر نفسه صديق لكل العائلة، وكان حديثنا عن الأدب والقصص ، وخرجت للقاء كالمرة السابقة بلباس الخروج من البيت ، كنت ألبس السروال الطويل عادة وبلوزة تغطي الذراعين ، ورأسي وشعري مكشوف .. نحن لا نلبس غطاء الرأس وكنا نتحدث نحن الأربعة ؛كأننا نجلس في النادي ، وكانت أمي تمدحني وتثني على عقلي وتربيتي المتزنة ، ومال يثني على تربيتها .

كانت أمي معجبة بمال ، ومحبة له حتى أن وسواسا دخل قلبي من هذا الحب لهذا المراهق ؛ ولكنني طردت هذه الخواطر الرديئة لعدم وجود ما يدل عليها ، وثانيا وجود ثاني معهم ، وأخلاق مال ، وقبول والدي لجلوسها معه دون اعتراض ، ولم أعرف عن أمي قصصا سيئة بعكس أبي .

وقالت : العجيب يا مال إنك تزعم أنك تكره البنات ، وأنك لم تصاحب أي فتاة .. وأنت في هذه السن ، وتحفظ كل هذا الغزل ! كان قد أسمعنا بعض أبيات الغزل لشعراء الجاهلية .

فقال : الغزل كان كتمهيد للشعر والقصائد ، وكذلك وصف الناقة والاطلال .

فقال ثاني معلقا : يحفظه ؛ ليكتب رسائل الغزل للزملاء .

وتحدثنا حول هذا الموضوع ثم قال : شكرًا لكم .. أنتم كأهلي .. وثاني يعلم ذلك .

بعد هذا اللقاء الثاني الدافئ كانت أمي تعتبر خروجي للترحيب بمال أمرا طبيعيا عاديا ، ولم يعد خروجي لذلك محرجا لي .. وانسجمت حقيقة معهم في الحديث عن شأني الخاص والعام كما

هم يفعلون .. فأمي تحدثهم عن مشاكلها في الدائرة أو مشاكل الموظفات وتسمع تعليقات مال وثاني ؛كأنها تتشاور معهم .. وكل جلسة تأخذ بعض الوقت للحديث عن الروايات والجديد منها في الأسواق ، ورأينا في هذه القصة وتلك ، وكانت أمي مسرورة من انسجامي مع مال حتى أني صرت أحدثه عن مشاكلي في المدرسة ومع الزميلات ، وأسمع حكمه ورأيه .. وأنا أتعجب من ذلك الانسجام والسماع حتى أني سألت نفسي لما كنت أتحدث معه عن أمور خاصة .. هل أنا مغرمة به من غير أن أشعر ؟! أهذا هو الحب الذي يتحدثون عنه ؟! هو لا يتحدث عن الحب كعلاقة معي .. فالفجوة بيننا كبيرة .. وصارت لديّ خشية من الوقوع في هواه.. أنا لم أفكر بذلك ؛ لكنه أصبح هاجسا في وجداني ومخيلتي ، وقلت لنفسي : ثاني يتحدث عني معه بدون أي حرج ..كانت ثقته بمال كبيرة ، وحتى أمي تثق به من ناحيتي ، وتقبلت جلوسي معه بالبيجامة فعلت ذلك مرة ، ولم تهتم أمي ولا ثاني هل يرغبون بزواجي منه ويمهدون لذلك ؟ إنه فقير من الفئة الكادحة .. كيف سيوفر لي عيشا كما أعيش في بيت أبي ؟ كنت في حيرة في تفسير هذا السماح ..كنت أجلس معهم بثياب الخروج إلا مرة كسرت الحاجز ، ولم يحدث شيء حتى مال لم يعلق ، وقلت لنفسي سأكرر ذلك بعد حين .. لم أحاول الغزل معه أو اعطاءه فكرة أني أغرم به .. وهذا لم يكن بعد ؛ إنما صار هذا بعد .. وتجاهلني كليا لما أخذت أرسل له إشارات عاطفية ورغبة بعلاقة عاطفية ؛ ربما استاء وخشي من تطور الأمر .. صرت حقيقة أتشوق للقائه كالعاشق الولهان .. وخشيت الافتضاح وإدراك أمي لحركاتي أو حتى ثاني لما أبوح به له من كلام حب ومن غمز وجمل معلقة .. فكنت أتحدث عن غراميات فتيات المدرسة والجيران ، وما أسمع من قصص البنات ، وأتحدث معه صدقا ؛ كأنني أتحدث مع صديقة أو زميلة مدرسة ، وأتحدث مع ثاني عنه بدون أي حساب .

قلت لكم إن العائلة لتمضية حياتها تذهب للمسارح والسينما والحدائق والنزهات .. فأبي يحب ذلك ، وفي الغالب ترافقه أمي .. أما نحن مرة هكذا ومرة أخرى لا نذهب حسب المزاج والرغبة .. وتمنيت مرافقتهم لمال وثاني إلى السينما أو مطعم ، لم أكشف مكنون قلبي لهم .

وأصبح مع الوقت وجودي معهم أمرا طبيعيا ، ولو لوقت قصير إذا كانت هناك صديقة أو أقارب يزورونا من جنسنا النسوي.. لم أجد معارضة من أحد أو نقد .. وترى أمي أن ذلك طبيعي ما دمت أنا راضية به ، ويريحني من البقاء وحدي في غرفتي حتى لو بقيت لنصف الليل.
مال أحدث تغيرات لم أتخيل حدوثها في البيت ، حتى أبي لم يعترض على طول سهرنا معه ، كان يرى مالا رجلا ومهما في البيت ، ويعتبر مالا كنزا أن خفف من سهر ثاني في الخارج ، وإذا خرج مع مال نعرف مكانهما.

كنّا مرة أنا وثاني ومال وحدنا في البيت ، كانت النية أن يذهبا للمقهى لموعد مع رفاقهم في لعب الورق ، ولما علم مال بخروج العائلة واقتراح ثاني البقاء في البيت وعدم تركي وحدي ، وافق مال على الاقتراح ، وأنا أسمع بعد تردد قصير ، وقوله الأصدقاء سيعتبون علينا نعتذر لهم غدا ودخلا وقال ثاني : لغينا الخروج يا أولى .. لم نحب أن تبقي وحدك خوفا عليك من الغيلان يقال يا مال إن الغول حيوان خرافي !

قال : نعم ، هذا صحيح مع أن الأمهات تخوف صغارها بالغول والغولة .

حييت مالا كالعادة ، أصبح أمرا لازما الخروج للترحيب به ، وشكرت شقيقي على تعاطفه ، وقلت مازحة : لعلك خفت يا ثاني أن أدخل صديقا في غيبتكم .

ضحكوا وقال : لم يخطر في بالي ذلك يا أولى .. فأنت في الخارج لا صديق لك .

ـ القلوب تتغير يا مال أليس كذلك ؟

قال ثاني : أختي يا مال لم نسجل عليها صحبة شاب .. أنا فعلت وفشلت علا مثلي .. أما يزيد فله عدة رفيقات كما يزعم.. وتذكر يا صديقي أنه يصغرني بأربع سنوات ؛ ولكنني لا أصدقه .. فهو إذا جلس مع فتاة اعتبرها حبيبة .. ادخل أيها الصديق !

بيتنا واسع يتكون من طابقين ، نحن الأولاد الأربعة لنا الطابق العلوي والأسفل للوالدين وغرف الاستقبال والمعيشة .. الذي تقدم في علاقتي بمال أصبحت أمد يدي لمصافحته ، وهو يفعل مثلي.. وأحيانا يمازحني بكلمة غزلية أو بيت شعر عاطفي ، ويقول : البنات تحب الغزل

يا ثاني ولو نفاقا .

فيقول ثاني : أصحيح يا أولى ؟

رددت : قد يكون ذلك صحيحا كما نرى من بنات المدرسة .. ترى الشاب يكلمها بما يفعل مال .. فتذوب حبا ، وتصنع من الحبة قبة .

فعقب : إذاً يا مال احذر من الغزل بأولى ؛ لأنها إذا أحببتك ستغير حياتك

قال : بماذا ستتغير حياتي يا ثاني ؟

لم أشعر أن مالا يغازلني من خلف الستارة بما يفتتح حديثه معي ، فقد قال ثاني : إن مالا يكره النساء .. وكررت أمي ذلك .. فهل هو صادق بكره النساء أم هو زعم؟! لم أتناقش معه في ذلك لحتى ذلك الوقت .

كنت أفكر بهذه الكلمة والكره ، وما يعني الكره لنا عنده ؟ وهو منسجم معنا أنا وأمي ، ونحن من جنس النساء ، لم أشعر بأنه يكرهني ، ويعاملني بضيق أو بغض ؛ بل أراه فرحا وباشا لرؤيتي ، ويقابلني بالابتسام والغزل .. وفيه صفات جميلة وطيبة ، بل صرت أتخيله معي في السرير زوجا ويداعبني وأداعبه .. وأحلم به زوجا ، ثم أعترض على هذه الأفكار ، وهذا الخيال .

صنعت لهما الشاي ، ثم دخلت ولبست ملابس البيت ، خلعت ملابس الخروج ، وكان الأمر عاديا بالنسبة لهم ، لم يعلق أحدهم على فعل هذا .

وهما مغرمان بالشاي ؛ ربما يشربان إبريقا كاملا ، ويطلبان المزيد ، يتحدثان عن الرياضة ومنافساتها والنوادي الرياضية .

ويتحدثان عن المدرسة والطلاب والمدرسين والمدير ، وعن مغامرات الشباب النسائية ، ثم يفسحان المجال لي للحديث عما أشاء من قصص في المدرسة مع الزميلات في النادي كما يتحدثون .. نضحك نعلق ندخن .. أنا لا أكثر من الدخان سيجارة أو اثنتان طول الجلسة .. ثم نأخذ بالحديث المشترك بيني وبين مال عن آخر لغز بوليسي وصل البلد .. فهذه الألغاز كانت تصل شهريا للمدينة ، ونتحدث عن المؤلفين مثل هوجو وإسكندر وزولا والسباعي ، ومن

يخطر على بالنا ، ثم سمعته يقول : أنت فتاة عجيبة وممتع الحديث معك !..لم أكن أتخيل فتاة في سنك تقرأ مثلي.. أغلب البنات يبحثن عن الأغاني العاطفية والمغامرات الولدانية.. أما الثقافة والجدية فهذا قليل .. أقول ذلك حقيقة .

قلت : كما تجد شبابا جادين .. هناك فتيات جادة ، ولا يفارقن المكتبات سواء في المدرسة أو النوادي .. وهناك الزاهدات في الثقافة .

ضحك وقال : حلوة كلمة الزاهدات يا ثاني ! لي صديق عاجز عن قراءة الرسائل التي تأتيه من الصبايا .. صدقوا أنني لا أبالغ سوى الهدايا والدفاتر التذكارية التي تهل عليه منهن .

أخذ ثاني يكيل له المدح حتى غرق بالخجل والحياء ولي .

فقال مال : أنا الحيي من النساء اندمجت في النقاش معك.. أنت ممتازة يا آنسة حقا .. ففي كتب المدرسة تتعمقين ، وفي القصص تقرئين بصورة جدية وتعين ما فيها .. هذا ذكاء منك!

قلت لنفسي : أهذا غزل فيّ منه ؟ هل هو حب مبطن؟! أمره يحير .

وهذا الكلام لما يصدر من شاب مراهق لفتاة مراهقة ، فهو خطير وجريء وأمام أخي، فقلت : شكرًا لكما .. أشكر لك هذا الثناء لي ولأخي الحبيب وتوأمي يا مال .

قال : هذه الهواية ليست لدى ثاني .

فقال ثاني : رغم سعي أمي لزرع هذه الهواية فيّ لم أنجح ؛ لكنها نجحت مع أولى .. وتعطيها لتشتري الكتب والقصص .. حتى يزيد وعلا ليسا مثلها

قال مال : متى تقرئين هذه القصص والكتب ؟

قلت : عادة في المساء قبل النوم أو قبل الذهاب للمدرسة إذا استيقظت مبكرة .

قال : تستغلين الوقت .

ـ أجل ، أستريح لما أرجع من المدرسة.. في العادة لم يكن والدي قد عادا من الدوام اليومي .. نتناول الطعام المعد ليلا أو فجرا ، ثم أراجع إن لم أنم بعض الوقت حسب إرهاق المدرسة ، ثم القراءة إلا إذا خرجنا في أمر ؛ ولكنني أقرأ قبل النوم حتى لما أسهر بصحبتكم أفعل قبل

النوم .. ولا يعني هذا أنني محبوسة .. وأنا لا أخرج دائما معهم .. فاستغل خروجهم في المطالعة .. أخرج لتغيير الجو واكتساب المعارف من مخالطة الناس .. ولي منافسات في المدرسة وفي نادي المقاصد أو نادي المالية .

عقب مال : هذا أفضل شيء للفتاة .. أحسن من تضييع وقتها في التسكع مع شباب مثلج غير محترم يبحث عن الشهوات والوهم والضياع .

ضحكنا فقد قالها بعصبية وحقد بدا لي وقلت بمكر :كان ثاني يحب ذلك وما زال .

قال ثاني : لا ، يا أولى تغير الوضع منذ عرفت مالا .. لا أدري يا مال لماذا تهرب مني الفتيات سريعا ويبحثن عن غيري ؟! لست بشعا ، أنت الوحيد الذي لا يمل من سماعي .. قبل جلوسك معي كانت هذه ـ وأشار إليّ ـ تسمع خمس دقائق وتنسحب .. اليوم تجلس معي وتسمع بالساعات .

فقال مال باسما : لأنني موجود ؛ ربما أنت وحدك ممل .

ـ لماذا أنت لا تمل من سماعي ؟!

ضحك مال وقال : لا أدري! .. أذكر أول مرة تعرفت عليك بجد كما تذكر عندما جرى بيننا نزاع على هدف .. هل هو صحيح أم لا ؟ ثم تصالحنا وأصبحنا أصدقاء .

قلت : تخاصمتا على هدف .

قال : أنا زعمت أن الهدف خاطئا ، وأصر ثاني على صحته ، وحكم الزملاء بيننا .. وجمعنا الدخان سرا في المدرسة .. هات سيجارة خذ سيجارة وصرنا زملاء صف بعد زمالة الملعب .

قال ثاني : وجدت فيك شيئا جعلني أرتاح لصحبتك .. وأنك لا تستسلم للخصم بسهولة ، ثم تقبل الاعتذار وتعتذر .

ـ شكرًا يا ثاني .

كانت سهرة ممتعة معهما وخرج الشاب ليلا ، وقد صافحني مودعا ، وهو يقول : الحديث معك في غاية المتعة.. أخشى أن أغير نظرتي عن النساء .

قال ثاني : ليتني أفهم هذه النظرة ! وأنت لم تصاحب فتاة .

ضحك قائلا : ها أنا صاحبت شقيقتك الغالية .. ومن خلالها سأفهم عقلية النساء .

فتجرأ ثاني فقال : هل تعتقد أنك ستصل يوما إلى علاقة غرام معها ؟

صاح :لا ، لا ، لست من أهل الغرام والهوى .

وقلت : أنا وأنا مثلك . ولم يكن ذلك صحيحا .

وسلم واختفى ، وأنا ذهبت لسريري أحلم بالغرام والهوى .. هل يتحدث عني هذا المراهق ؟ لقد أحببته فعلا إنه يدرك أنني وقعت في هواه ؛ لذلك يذكر الحواجز .. لا يريدني أن أتورط . قضيت ساعة أتقلب في سريري وأتخيله ينام بجواري .. هل ورطني ثاني وأمي بهذا ؟ لكني كنت أرغب باللقاء به من أجل القصص وهذه الهواية وقلت : لا يمكن أن يغامر معي ، فليس هناك أمل لزواج بيني وبينه ، ولا أظنه يقبل أن أكون عشيقة له .

أصبحت في مأزق حقيقي ، فقررت أن أتوقف عن الجلوس معهم ، فثاني يورط بي دون أن أشعر .. هل ما بي حب كالذي أسمعه من بنات المدرسة والنادي؟ لذلك لما جاء بعد ليال تظاهرت بالمرض ، وقاومت لم أشاركهم السهر .. وفعلا قضيت المساء مريضة بالصداع ، ثم القيء وبعد هذه المرضة خرجت ، وجلست وقتا قصيرا ، ثم اعتذرت بالتعب والصداع فرافقتني أمي لحجرتي وقالت : ما بك يا أولى ؟

ـ متعبة يا أمي ! دروس اليوم أتعبتني .

ـ هل أسأ إليك مال أو ثاني ؟

قلت : لماذا هذا السؤال يا أمي ؟!

قالت : أنت منذ جلستك الأخيرة معهم عند غيابنا مترددة في السهر معنا

ـ لا ، لم يغضبني أحد منهما ؛ بل أن أسر من الجلوس معهم .. وأنفس عن روحي .

ـ من أجل هذا سمحت لك بصحبتهم .

قلت : شكرًا لك يا أمي .. فرصة طيبة ؛ لكني متعبة فعلا يا أمي .

ـ حسن !

لما حضر مال في الزيارة التالية ـ كان يحضر في الأسبوع ؛ ربما ثلاث مرات للسهر ـ أيام الاختبارات كان يتوقف الشاب عن الزيارة ـ فلبست أجمل الفساتين ، ونزلت مرحبا به ، وحضرت أمي كالعادة بالشاي والمكسرات أو البسكويت، نهض مال مسلما ومسلما خديه لأمي أصبح طقسا مطلوبا بدا لي ، ولما عادوا للجلوس قال: أهلا بأمي الثانية .

رحبت به أمي من جديد ، وسألته عن أمه وأهله وقالت: كيف أنت اليوم يا أولى ؟

قلت : بخير يا أمي

قال : تركتها متعبة المرة الماضية الحمد لله على السلامة .

قلت : لي أسبوع منهكة يا مال .. لم أستطع السهر معكم المرات الماضية .

قال ثاني: أنت لا تنامين مبكرة عادة .

ـ نعم ، كان لدينا في المدرسة أسبوع نشاط متعب .

دعت لي أمي والشابان بالعافية والقوة ، وتحدث ثاني عن قرب امتحانات الفصل الأول والاستعداد لها ، ثم عقب فقال : هل فتحت كتابا يا مال استعدادا لها ؟

تطلع في عيني وقال :أنا لا أعرف كيف يقرأ الناس في كتب المدرسة ؟!

فقالت أمي : كما تقرأ في كتب غير المدرسة .

قال : هذا سر.. أنا أندمج في قراءة كتب علمية وأدبية .. ولما أفتح كتاب المدرسة أنعس وأحس بثقل .

قلت : كثير من الناس مثلك .. كيف تنجح؟

قال ثاني : فعلا كيف تنجح ؟ عمرك ما حملت مادة .. وأنت تعلم أن شرح الاستاذ لا يكفي .

قال: أتصفح الكتاب .. وقد أركز على أشياء معينة .. وربك يجبر .

قالت أمي : إلهام يعني!

تبسم وقال : تقريبا ؛ لذلك أترك الدراسة لثاني .

قلت : ألا تغش وتكتب رشتات ؟

قال : أبدا ؛ بل بعضهم يغش عني .. أنا فقط أسعى للنجاح ،لا أهتم بالعلامات العليا .. والأسئلة متنوعة للقوي والمتوسط والضعيف .

قال ثاني : الأسبوع القادم قد تبدأ الامتحانات حسب ما تسرب .. أين ستقضي أسبوعك ؟

ـ رفاق المقهى يتذمرون من غيبتي ..سأستغل الإجازة عنك معهم ..والنادي الذي أسسناه سأتفرغ له .

قالت أمي : أي نادي ؟

قال ثاني : أولاد حيه أسسوا نادي للعب كرة القدم نادي شعبي.. ومال له نادي شطرنج خاص.

تحدث الشاب عن قصة نواديه ولعبه فيها ، ولما خيم الصمت ، قالت أمي بسؤال مفاجئ له ؛ وكأنه لي : ألم تعرف الحب يا مال ؟

تطلع إليّ للحظات ، وقال : عرفته كما عرفه ثاني ؛ لكني ما خرجت مع أي فتاة للمشي في شارع إلى مطعم إلى سينما .. تعرفت على بعض الفتيات في الحي ..نتحدث في ضوء النهار ؛ بل كتبت شعرا في واحدة منهن .. ولم أجلس معها في خلوة ؛ كأنها طلبت أن أكتب فيها قصيدة ففعلت .. ومرة فتاة دعتني لحبها فاعتذرت لما نقلت لي رسالتها .. وهناك فتاة أراها في السنة مرة عندما تأتي من السفر ، حب سنوي .. ويصدف أن أكون منتظرا رفيقا تقف قبالتي تبادلني حركة العيون وغير ذلك .. وأحيانا أشاركها الهبل ، ثم لما تسافر ينتهي الأمر جملة .

قلت : وكيف تزعم أنك تكره النساء ؟

قال : وما زلت .. ولا أعتبر هذه الوقفات غراما بالنساء أو حبا يا آنسة .. الحب الذي أعرفه غير ذلك .. ها هو ثاني التقى بعشرات الصبايا ، ولم يقع في حب إحداهن أو العكس.. الحب أعمق من ذلك.. لي أصدقاء سنوات يغرقون في الحب واللقاءات .. ويحلمون بالزواج من محبوباتهم يا أم ثاني .. أما لقاء فكيف حالك ؟ ما أخبارك ؟ يمسك يدها .. أهذا حب ؟ لا لا .. هذه سذاجة .

قالت أمي : وإذا كانت هناك فتاة تحبك ، وأنت لا تستطيع حبها ماذا عليها أن تفعل ؟

قال ثاني : ولماذا يحبها يا أمي؟ وهو عاجز عن حبها والوصول إليها .

قلت لنفسي : هل تقصدني أمي وتريد نقل رسالة لي ؟

فقلت : ولماذا لا يستطيع حبها يا أمي ؟!

قالت أمي: امرأة متزوجة مثلا أحبتك ماذا تفعل يا مال ؟

قال باسما : أهذا لغز أم حقيقة ؟

ـ لنفرض أنه حقيقة .

رد بجرأة عرفتها فيه : هذه لا تحبه ؛ إنما تشتهيه ..تريد الزنا ، والله أعلم .

فقال ثاني : فعلا هذه امرأة شهوانية تطلب الفاحشة يا أمي .. ما دام لها زوج فلتحبه .. أما إذا لم تحبه فتطلب الطلاق .

قال مال :نعم ، تطلب الطلاق وتحبه .. وقد لا يقبل بها المحب زوجة .

تنهدت أمي وقالت : هذا إذا كانت متزوجة ، وإذا كانت عزباء أو مطلقة أو أرملة أحبت مالا وأنت لا ترغبها حبيبة ماذا تفعل هذه الفتاة ؟

فقال : ماذا تفعل يا ثاني ؟

رد : لماذا لا يستطيع حبها؟

قالت : أميرة ملكة غنية

ـ فعلا هذه صعبة يا مال .

فقال مال : يهاجر من البلد حتى تتزوج أو ...

وسكت فقلت : أو !

قال : لا داعي لأو .

قالت أمي : أو تموت يا أولى .

صحت : أوه ! حسن هذا له !.. وهي ماذا تفعل ليذهب عنها هذا الهوى ؟

قال ثاني : تنسى وتبحث عن ذكر آخر ؛ لنفرض أن الحبيب قد مات .. هل ستبقى من غير حبيب ؟ لا يصدق ذلك .

قال مال : عليها بنسيانه ، وكما قال ثاني تبحث عن رجل من مستواها الاجتماعي .

هل هذه كانت رسالة لي؟ هل أدركت أمي الحب الصامت في قلبي لحبيبي مال ؟ أنا أدرك تماما أن مالا يحس بحبي ..وأن كل هذه الأشعار الغزلية رسالة لي ..أنا غنية وهو فقير .. أنا أبي دكتور مالية ووالده عامل بسيط .. أحببته وسأظل أحبه وإن لم أتزوجه .. فهذا الحل عندي يا مال .. الأيام قد يكون لها أمر وكلام آخر .. حبيبي مال .. ألستم أنتم الذين سمحتم لي بالجلوس معه واللقاء به؟!

اختفى مال مع أيام الامتحانات ، قالت أمي : أتحبين الشاب يا أولى ؟

نظرت إليها مليا ثم قلت : ولماذا لا أحبه ؟ ألستم تحبونه ؟!

قالت بهدوء : نحن أحببناه كصديق لنا.. أما أنت فتحبينه كحبيب ؟

قلت : لا أدري!

ـ أنا أمك يا أولى ، وأعرفك لست غبية .

قلت : والحل يا أمي!

كان الحديث بيننا فقط : أنت من جيله ..وأنت من تعرفين من نحن ؟وهو صديق ثاني ، ولا يقبل خيانته .

قلت : أنا حبي له في قلبي يا أمي ! وأعرف من أنا ؟ ومن نحن ؟ ومن هو ؟

قالت : فالزواج منه يا ابنتي صعب .. وأنت أمامك الجامعة قبل الزواج .

قلت : أعرف يا أمي .. لن أخلو به .. ولن أغازله .. ولن أكتب له .

ـ الأمر صعب عليك ، ولم أكن أتوقع منك ذلك .

ـ القلب بيد الله .

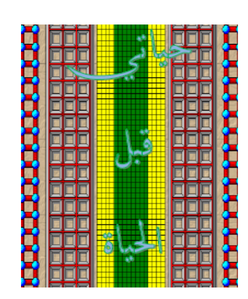
ـ العقل من الله .

قلت : لم يلمسني يا أمي ، ولم نخلُ ببعضنا .. فأحبه في الخيال ، وأعرف أنه لا يفكر بي زوجة أو حبيبة .

قالت : نسلم أمرنا لله أفضل .

قلت : أشكرك يا أمي ! وإذا ترين أن لا أخرج للحديث معكم أفعل .

قالت : لا أمنعك من ذلك .. فليبق الأمر بينكم حول هوايتكم المشتركة فثاني لن يتخلى عنه بسهولة .. فلنصبر حتى تنتهي هذه المرحلة .



النجاح والفراق

أحببت مالا حبا صامتا ، رغبت بأن أتمشى وإياه في حديقة ، أذهب معه إلى مسرح أو دار عرض .. الحواجز بين العائلات لا تسمح بذلك إلا إذا تحديت أسرتي.. وهل يقبل مال ذلك؟ لا أظنه يقبل ؛ لأن الحب بدا داخل بيتنا ، لم أعرفه في شارع أو نادي أو أي مكان ..نشأ الحب في بيتنا .. وهو صديق أخي الوحيد ..وأنا متأكدة أن الشاب يحبني ، عيونه تتكلم ، وحركاته وحديثه يقول ذلك ؛ ولكنه لا يريد خيانة صديقه الذي سمح له بدخول البيت والجلوس مع أمه وأبيه وأخته .. نعم عليّ أن أكظم عشقي لهذا الشاب كما يفعل هو .. الحب الصامت .

رضيت كما تريد والدتي بحبي الصامت والجلوس معهم ، وحصر علاقتي به بالقصص والثقافة لا مجال للخلوة والقبل والمداعبة تركتها للفراش والأحلام والخيال.

دخلت الثانوية العامة ، وبدا الاجتهاد لي ولثاني .. علينا أن نجتهد .. عرض الوالد علينا المدرسين الخصوصيين ، فقبل ثاني ورفضت أنا فلست بحاجة لهم .. قلّت زيارات مال .. لم تنقطع كانت ليلة الجمعة فقط ، ولم يحدث لحبي الصامت أي تطور .. اليأس فقط .. فنحن من جيل واحد ..وهو الفقير وأنا بنت الغني .. ومال لم يحاول جري لعمل يسيء للعائلة .. وجاءت الامتحانات بعد سنة طويلة .. نجحت بمعدل جيد جدا ، وثاني تقريبا مثلي وأما صاحبنا مال فلم ينجح .. وهذا كان متوقعا كما قال ثاني .. فهو ضعيف للغاية في مادتي الرياضيات واللغات الأجنبية .. كنّا نتمنى له النجاح مثلنا .. واتصل بي مهنئا وبأمي ، ووعد بزيارة من أجل ذلك .. وفعلا كانت بعد هدوء عاصفة نتائج الثانوية العامة .. حضر بعد أسبوع بعد ترتيب مع ثاني وقبلني لأول مره من ناصيتي وهو على البوابة مهنئا .. وقبل أمي مباركا .. وسهرنا معه ، وجاء والدي وثاني .. وتعشينا سوية بصحبته وواسيناه وحدثنا أنه يفكر بالذهاب لخدمة العلم ، وشجعناه جمعينا بالكرة ثانية .. وعرفت أنها زيارة وداع أيضا .

ولما انصرف شكرنا شكرًا أخجلنا .. فالرجل له لسان جميل ، وتمنى لي التوفيق في الجامعة ، وسمحت له بتقبيلي ثانية .

وقلت له : أحبك وسأبقى أحبك فقال همسا مثلي : وأنا كذلك . وأعطاني رقم صندوق بريده وقبل ثاني وأمي وقال : لعلنا نلتقي .. الأمور ستتغير .

قالت وقد دمعت عيناها : أحببناك يا مال ، ونتمنى أن لا يكون هذا لقاء وداع .

قال : لا أنساكم يا خالتي أبدا .. فأحلى ثلاث سنين كانت لحتى الآن .. واستوصوا بأولى خيرا .. فهي أعز صديقة ومعرفة لي .

فقال ثاني : أحبك يا مال كما أحب أسرتي .. وأنت الصديق الغالي.. وستبقى صداقتنا ..فانت تعرف البيت والحي والهاتف.

اختفى جسد مال ، ودخلت حجرتي أبكي .. بكيت وكثيرا ما بكيت من أجل مال ..وكنت قد تصورت معه في البيت طبعا .. تصورنا ذات ليلة بكاميرا اشتراها يزيد ، فهو من هواة التصوير.

أخرجت تلك الصور ونظرتها من جديد ، وهمست : أحبك يا مال الدين هل تكون شريك هذا السرير يوما ما ؟ أليس ذلك نهاية الحب الزواج ؟

التحقت بكلية اللغات أدرس اللغة الفرنسية كما كنت أرغب ، وأخي كلية العلوم ؛ ليكون مدرس علوم .

يشعر الانسان بالفرق بين الثانوية والجامعة ، شعرت أنني كبرت سنوات .. الاختلاط لم يكن جديدا عليّ ، فنحن نختلط بهم في النوادي التي نشترك فيها ، لم أكون أي صداقة مع فتيان وشباب النوادي ، لم أجد من يهواه القلب .

كنّا نتابع أخبار مال الدين عن طريق ثاني الذي اشتغل مثلي في الجامعة ، وبدا يتلاشى مال من حياته ، فقد وجد في البنات وفتيات الجامعة هوى ورغبة أكثر ، فبدأت مغامراته سريعا .. وأمي تتابعه بحرقة وخوف .. فهي درست في الجامعة مثلنا ، وتعرف مغامرات الجامعة وبنات الجامعة حيث يضيع الشباب بين السيقان والخمور والفجور ، وتخاف عليّ أيضا من التعرف على شاب شهواني يفترسني كما تقول بكل صراحة .. الشباب عندها ذئاب يبحثون عن الرغبات .. والفتيات مستعدات لذلك ،وأنا لمست ذلك سريعا.

فكنت أكتب لمال بما أرى وأسمع ، ويقدم لي النصائح والإرشادات والمحافظة على نفسي وشرفي وعدم الانزلاق في مغامرات غير محسوبة .. وكنت أسمع ما يقول وينصح وأقبل به .. أكتب له وأنا في الحديقة ، وأنا في المكتبة .. كنت أجد لذة في الكتابة إليه وسماع أخباره .. وفرحت لما أخبرني أن أمه مصرة على أن يعيد ، وأنه سجل في مدرسة خاصة ، ثم علمت أنه ملّ وأخذ يعمل في مهن مختلفة، وأنه مصمم على الذهاب للجيش وأداء خدمة العلم .

الجامعة عالم جميل لمن أحب أن يكون جميلا ، وعالم بشع لمن أراد ذلك .. مطاردة الشباب للبنات أمر تشمئز منه النفس .. ترى ذكورا لا هم لهم إلا البنات .. وبنات أيضا لا هم لهن إلا ذلك .. وهناك الجادون من كلا الجنسين فتعرضت لمضايقات ومحاولات تكوين صداقات همها العبث والشهوات قاومت وركزت على دراستي ؛ لكن فرعي كله شباب من أسر غنية .. الدراسة أمر ثاني لهم ..تصاحبه تجده يريد جرك لحفلات وسهرات ..وبعض الصديقات سقطن ، وصار همهن قضاء ليلة في حضن شاب فاسد شهواني .. ثم تنتقل لآخر .. وأخرى ترغب بزوج بعد التخرج.. فيقضي شهوته ويتركها تبحث عن غيره .. الوضع لم يكن مريحا لي .. وبعضهن تساعد الشباب في اصطياد الشابات لمثل هذه المغامرات .. استطعت اجتياز السنة الأولى بدون السقوط رغم فساد من حاولت صداقتهن .. لم تسمح لي نصائح وحماية أمي ورسائل مال بالانزلاق للهاوية .. ولم أجد الفارس الصادق الذي لا يريد الجسد .

لديّ جهاز مناعة ولكن الإثارة والرغبة تلتهب في الجسم مما تسمع وترى تظن أن الجامعة مرتع للبغاء .. تدخل حديقة تجد ما يريب .. تدخل المطعم كذلك .. وجدت النادي أهون شرا من ساحات الجامعة وخاصة كلية الآداب .

كنت أتحدث مع أمي عن ذلك ، وتنصحني بحسن الاختيار للزملاء والزميلات ، وأن الفتاة إذا سلمت نفسها لشاب سيهجرها بعد حين ويبحث عن غيرها .. وهي ستضطر البحث عن غيره لتجبر كسرها فالصبر والثبات هو الأفضل .. وأكثر أحاديث الشباب عن الرغبة والجنس والعلاقات العابرة ، وأن فترة الجامعة لن تعود .

دخلت السنة الثانية وعلاقتي بمال رسائل ، وهو يستعد للذهاب للجيش لأداء التجنيد الإجباري كما يسمونه .

ولما تجند دخلت السنة الثالثة في الجامعة ، أصبح لديّ الرغبة بقوة لإيجاد البديل عن مال ، وأن لا أمل بالزواج منه ونهاية لحبي له .. هو خرج من الدراسة ، وهذا سبب آخر يباعد بيننا سوى المستوى الاجتماعي والطبقي المصطنع والسن ؛ لكن حبه في القلب .. فحدثتني أمي عن زوج عن ابن خالتها مازن سميح درس الطب سنة ، ثم تركه ودرس القانون ، وهو يعمل محاميا في مكتب خالي هاني سالم .. وهو يرغب بزوجة بعد تخرجه وعمله .. أنا أعرفه جيدا ، دخل بيتنا ، ودخلنا بيت أمه خالة أمي ، وأعرفه من خلال النادي المقاصد الكبرى .. وكان ينظر إليّ حقيقة دائما بشهوة ورغبة واضحة في عينيه .. حاول معاكستي مرارا ؛ لكنني اعتذرت له ، وأخبرته أنا لا أحب هذه الأفعال الصبيانية ، وانتهى الأمر حتى دخلت في السنة الثالثة .. وكان هناك شاب جامعي يرغب بي زوجة بعد التخرج ، ولم ينل مني قبلة فانقلب إلى فتاة تمشي معي ؛ ليدفعني للغيرة ؛ ليعود إليّ فتجاهلته .. فحاول ثانية فصرفته بالتي هي أحسن .. كان الأمل في الحياة مع الشاب الذي تفتح له قلبي يتضاءل .. مازن مصر على الزواج مني وخالة أمي تضغط على أمي وأبي .. وأن الشاب مستعد للصبر حتى أتخرج إذا حدثت الخطبة أو الزواج واكمال الدراسة .. وأنا الرغبة برجل تزيد في جسمي .. الجسم يصيح والشهوة تزيد والهرمون يرتفع لديّ .. مغامرات ثاني تعزز النار في جسدي .. أريد رجلا .. أريد حبيبا ..أريد أن أفرغ طاقتي التي زادت لديّ حتى أن أمي أدركت أنني على وشك السقوط ، وأنني ما زلت متعلقة بمال.

قالت أمي : تزوجي من مازن.. أليس هو رجلا كغيره ؟

قلت : لا أحبه يا أمي كيف سأسلمه جسدي قبل روحي ؟

ـ قد تحبينه بعد الزواج .

قلت : هل الزواج قضاء الشهوة فحسب ؟

ـ هذه أهمها.

قلت : أنا أريد مالا .. هو الحبيب الذي أحببته .

قالت : أمر الوصول إليه أمر لا تقبله العائلة يا ابنتي.. أما مازن فلن يعترض أحد .

قلت : هل أسلم نفسي لشباب الجامعة أفضل على أمل أن يحن أحدهم للزواج مني .

ـ لا شباب الجامعة ولا مال .. مال لا يقبل أن يتزوجك .

قلت بغضب : لماذا ؟ لأنني ابنة هدى سالم وموسى أمير .

قالت : لأشياء أخرى .

قلت : صدقي لو لم يجد رفضا منكم لقبل أن يبادلني الحب .. ولم ينظر للغنى والفقر .. هل سيبقى فقيرا يا أمي؟ .. وأنا سأعمل براتب كبير لما أتخرج .. ها أنت تساعدين أبي في مصروف البيت .. لو وجد تشجيعا منك لعبر عن حبه صراحة لي.

قالت : وكيف سيقبل بك وهو في الجيش بعشرة دنانير لا تكفيه سجائر ؟!

قلت : سيقبل .. أنا متأكدة أن الشاب يرغب بي ؛ لكن الحواجز التي كانت في طريقه دفعته أن يبتعد .. ولماذا يعترض ثاني على الزواج من صديقه ؟

ـ أنا أعلم رغبتك الشديدة به من تلك الأيام .. الظروف لم تكن تسمح .. أنتم صغار .

ـ دعيني أحاول ؛ فإذا رفضني سأقبل الزواج من قريبك مازن .

قالت : كيف ستحاولين ؟!

قلت : سأقنعه بالزواج مني وبحبي له .

قالت : افعلي ما تشائين يا أولى !

عانقت أمي وأخذت موافقتها على الاقتران بمال ، وقلت الآن جاء دورك يا مال .

تحدثت مع ثاني عن رغبتي بإقناع مال صاحبه بالزواج مني فامتعض ، وقلت : وافقت أمي على ذلك .. وأنا معجبة به .

ـ وهل وافق هو ؟!

ـ لا نتحدث بذلك.. وهو كما تعلم في الجيش .. وأنت منذ انتهاء الثانوية لم تعد تجتمع به إلا

عرضا .

قال : لم تجدي إلا مالا !

حدثته عن مازن وعدم رغبتي بالزواج منه ، وإذا وافق مال سأتزوج منه رغم فقره .

قال : لم أكن أظن أنك واقعة في هواه لهذا الحد .

ـ لم يظهر لي ذلك .. أنا التي أحببته ، ورفضته أمك .

ـ وأبي .

قلت : ليس مهم رأي أبي .. الرأي لي يا ثاني .

قال : المطلوب مني .

قلت : أنا أريد أن يزورنا مال وأصارحه برغبتي هذه ، وأحاول إقناعه ؛ فإذا لم يوافق سأتزوج مازنا .. هكذا اتفقت مع أمك .

قال : البنات عجيبات .

قلت : لم أحب أحدا في الجامعة .. أريد مقابلته في البيت ؛ لأتحدث معه في الأمر ، وأحسم أمر مازن .. عليك أن ترتب دعوة له وأنا أحدد اليوم .

استسلم ثاني لرغبة شقيقته ، وخشي أن تقابله من دون علمهم ، وحدث مالا برغبته بلقائه ورغبة أولى أن تحدثه شخصيا بأمر مهم وشخصي ، وتحدد له وقت اللقاء.

اللقاء الحاسم

وافق مال على الزيارة واللقاء وبعد غروب الشمس في يوم ماطر ذهب لدرب القلعة ، وضغط على الجرس ، فتحت أولى البوابة ، ولما دخل عانقته ، واحتضنته وضمته لصدرها كغائب رجع من السفر ، وقلبها يخفق بشدة .. وارتبك مال لفعلها ، وكانت ترتدي فستانا فوق الركبة ، وتضع عطرا مثيرا للرجال ، كانت كأنها زوجة في استقبال زوجها العائد من السفر .

جلسوا في الصالون ورحبت أمها به وكان حديثا مطولا ، ثم خلت به وحدثته عن رغبتها بالزواج منه ، وكانت تقوم بحركات اغراء ورغبة جنسية واضحة ،وتكاد أن تسلم نفسها له ، وهو يتمالك رغبته وشهوته ويدافع عن نفسه ، ولا يحب الخيانة والزنا ، وبذلت جهدها لينام معها ، ولو ساعة ما دام لا يرغب بها زوجة ، وكانت ساعة عصيبة عليه مما دفعه أن يرفعها عن فخذيه ، فقد جلست عليهما ، وحاولت تقبيله من شفتيه وهو يمانع ، ووضعت يده على ثدييها فدفعها عن نفسه ، ونهض قائما وخرج مسرعا من البيت ، وهو لا يدرك ما حدث ، ويعجب من رغبتها واستسلامها لشهوة الجنس ، ولما اختفى دخلت أمها ، ووجدتها تبكي فصاحت : سلمته جسدي ورفض هرب .

ـ ماذا فعلت ؟

قلت : عرضت عليه بدني ورفضه .

قالت : ماذا أسمع ؟! هل جننت؟!

قلت بجنون الشهوة : أريد رجلا .

قالت : تريدين رجلا بالحرام !

صحت فيها : وهل نحن نعرف الحرام ؟!

قالت : هل فعل بك شيئا؟

صرخت : هرب .. رفض هذا الجسد .. سأتزوج مازنا لعلي أجد لديه ما لم أجده عند مال .. أأتخذ عشاقا لتهدأ النار في هذا الجسد ؟

قالت أمي وقد عاد إليها طبعها: وهل الجنس يهدئ النار ؟

قلت : الجنس حاجة ملحة للجسم .

قالت : أنت جننت .

صحت : وماذا يفعل ثاني ويزيد مع البنات ؟!

أخذت تبكي أمي ، وأنا أبكي .

ثم سكنّا ، وكان الحل قبول مازن ذكرا لي ، وكان ذلك خلال صيف العام الثالث لي في الجامعة . لقد فشلت بإقناع مال بالزواج مع اعترافه بحبه لي واشتهائه لجسدي ، وقدمت له بدني على طبق من فضه ولم يقبل، وأعلم أنني أخطأت خطأ كبيرا في حقه .. وأما أهلي فليس لهم اهتمام عندي . أتى مازن وأهله ، وقرأوا فاتحتي ، وقبلني الشاب بشهوة أشعلت الرغبة فيّ وأسرعنا بالزواج ، وسلمت نفسي لمازن البغيض لقلبي، ولم أحبه يوما ؛ إنما كان مجرد شريك فراش ، لم أجد عنده الحب ؛ إنما شهوة نقضيها معا ، ولما ينته اللقاء ؛ كأننا أصدقاء شارع أو نادي .. كنّا مجرد زوجين .. ولم يكن بالزوج المنشود ،ولم تكن معاشرته ترضي امرأة .. كله عيوب .. وأعتقد أنه عاشر نساء غيري .. فهو لم يكن شريفا وطاهرا .. وأنا منذ أول ليلة اعتقدت أن له عشيقات وبنات هوى .. كان مستهلكا أقول ذلك ؛ لأن هذا واضح وبان مع الوقت .

التخرج

بعد زواجي السيء من المحامي مازن سميح ابن السبع والعشرين سنة بسنة تخرجت من الكلية .. وكان أبي قد يسر لي عملا فور تخرجي في معهد تدريس اللغة الفرنسية للشباب العرب .. وكنت قد ذهبت عددا من المرات للمعهد ولي معرفة به .. وكان هناك شبه اتفاق على ذلك .. ورغم ما حدث بيني وبين مال كنت أكتب له ، واعتذرت له عن تلك الليلة السوداء ، وبدا أنه تقبل اعتذاري ورغبتي به زوجا أو عشيقا .

ولما تخرجت هو أيضا أنهى خدمة الجيش ، وقل رده على رسائلي ، وبعد تلك الليلة لم يطرق باب بيتنا ، وخفت علاقته أصلا ببيتنا كما تعلمون منذ النجاح في الثانوية .. وظللت متعلقة به رغم زواجي ، ولم يكن مازن الرجل المريح لي .. فأنا كنت أسمع قبل الزواج عن مغامراته النسائية السيئة ؛ لكن الأسر عندنا تسمح بذلك للرجال وتغض الطرف عنه .. وقد حدث ذلك لأبي قبل استقراره العاطفي ، وسكتت أمي عن ذلك ..ولما دخلنا سن المراهقة لم يحدث ذلك من أبينا أو لم نسمع .. وقبلت بالزواج ؛ لأني احتجت لإشباع تلك الغريزة بالحلال قبل السقوط الذي أخذ يلح عليّ .

قلت يوما لمازن : هناك امرأة تتصل كثيرا بالبيت اسمها بلا

حك رأسه وقال : هل تريد شيئا ؟

تقول : إن لها قضية عندك .

قال : لها قضية عندنا ولماذا لا تتصل بالمكتب ؟

ـ وتقول إنها صديقة لك .

ـ صديقاتي كثيرات يا أولى .

قلت : ألا تريد أن تخفف علاقتك مع النساء وقد تزوجت ؟

قال : أرغب بذلك ؛ ولكن التخلص منهن يحتاج لوقت يا أولى .

قلت : لك اليوم زوجة وحبيبة .

قال : أنت زوجة .. لست حبيبة .. أنت حبيبك مال .

قلت : قلت لك ليس بيني وبينه أي علاقة جسدية يا مازن .. وأنا تعلقت به فترة الثانوية .. فقد اختفى من حياتنا بعد نجاحنا في الثانوية .. وما خرجت معه يوما ، ولا خليت به خمس دقائق يا مازن .

قال ببرود : ليتني أصدق .

قلت : ليس بالضرورة أن تصدق .. أنت لا تستطيع محاسبتي على عمل فعلته قبل زواجنا .. هل سألتك عن نسائك قبل الزواج ؟.. وأنت لليوم تُمارس البغاء معهن .

قال : أنا حر .

قلت : إذاً لا حق لك بمحاسبتي ، ولو اتخذت عشيقا .

قال بوقاحة : اتخذي عشيقا إلا مالا .

قلت : كانت لحظة ضعف عندما قبلت بك .

قال : أعلم ، ووقع في قلبي أنك سلمت لنفسك لرجل ، واحتجت لترقيع الأمر .

قلت : لو حدث ذلك ما تزوجتك ، ولو قبل بي مال ما تزوجتك يا مازن .

رد قائلا : أعلم .. متى ستحملين ؟

قلت : أنا لا مشكلة لديّ .. المشكلة عندك.. قلت لا خلفة قبل خمس سنوات زواج .

قال : غيرت رغبتي ، أمي وأمك يريدان الحمل .

قلت: سأتوقف عن أخذ الحبوب ؛ لعلك إذا صرت أبا تترك النساء والعشيقات .

قال : لا عشيقات لديّ .

قلت : لا تضحك عليّ .. أنا سمعت من أختيك شفاء وهناء وأخيك هاني

فقال ساخرا : هذا لا شيء يخفى .

هكذا كنّا نقضي أوقاتنا بنشر غسيلنا خاصة مازن .. وكان عليّ القبول بهذا الواقع المر ؛ لأنني لم أتزوج ملاكا كما تقول أمي .

شغل العمل في المعهد الفرنسي وقتي من المهاترات مع زوجي الشبق للنساء وهو ضعيف جنسيا لم أجد فيه الفحولة التي يتظاهر بها أو أنا مريضة جنسيا ، مع أنني لم أمارس الجنس قبل الزواج كنت عذراء لما تزوجت الفاشل مازن .

الدوام في المعهد يبدأ من العاشرة صباحا حتى الثانية بعد الظهر أربع ساعات التدريس .. هناك أنشطة أخرى رياضة مكتبة أبحاث ترجمات تأخذ المزيد من الوقت .. قد أعود مع الغروب للبيت أو أذهب في زيارات خاصة .. أصبح البقاء في البيت للشقاء والنزاع ..وكثيرا أذهب للمبيت عند أمي فأجدها وحدها تجلس مع التلفزيون ، وأبي في حجرته يخرج مرات ليرحب بي ومرات لا أراه ، هذا طبعه منذ دخلنا الجامعة .. رغبة القراءة استمرت معي طول سنوات الجامعة وفي المعهد ..كنت أقرأ الروايات باللغة الفرنسية .. فاطلع على طبعات أصلية لأدباء فرنسا .. بعد سنة من العمل ذهبت في رحلة لفرنسا وباريس على نفقة المعهد للمزيد من المعرفة عن فرنسا .

بعد عودتي بيسير علمت أنني حامل من المدعو مازن ، وفي عام أربعة وثمانين وضعت مولودي الأول .. كان ذكرا ، تشاجرت مع مازن على تسميته أردت أن اسميه مالا بدون الدين ، فرفض مازن بشدة ، وعيرني بأنه اسم عشيقي .. يا ليته كان عشيقي ! تدخلت أمي وخالتها وسميناه جلالا ، ولما انتهت اجازة الأمومة تكفلت برعايته حماتي أم مازن ، حتى أعود من المعهد ، فتركت العمل الاضافي ، ومع وجود الطفل لم نتخلص من المناكفات مع بعض حتى وصل به الظن مرة أن يقول هذا الطفل من أين أتيت به ؟ فصعقت للاتهام ، وكاد الأمر يصل للطلاق والفراق ، وتم ترقيع الأمر ، وعدت إليه ذليلة .

أحببت طفلي ، ولم يرضع من صدري سوى أول أيام ، ثم كف صدري عن الحليب ، فتعود على الحليب الصناعي .

رغم ولادتي لجلال لم تنته المشاكل مع مازن ، وقلت له مرة : لماذا تزوجتني يا مازن ما دمت تراني مومسا ؟

فقال : انتقام .

دهشت وقلت : انتقام ! وماذا فعلت لك للانتقام مني ؟!

قال : أسأت لي مرة في النادي أمام حنان .

قلت : من حنان ؟!

ضحك وقال متهكما : لا تعرفين حنان !

قلت : لا أعرفها .

فصرخ في وجهي : بنت الدكتور باسم .

تأوهت وقلت : آه ! تلك السمراء .. وكيف أسأت لك ؟

قال : كنت أجلس معها نشرب الكولا ، وسلمت علينا من رؤوس مناخيرك ؛ كأننا حشرات ثم قلت لها: ألم تجدي إلا هذا المراهق تحبينه ؟ فقالت : نعم ، هو مراهق بغيض ؛ لكنه مسلي . . ثم ابتعدت عنا .

قلت : كم كان عمري يومها ؟

قال : ليس مهم العمر ..أسأت لنا ، وابتعدت عني قائلة قريبتك تحتقرك

قلت : ومن أجل هذا تزوجتني لتنتقم .

قال : نعم ، هذا أحد الأسباب .

صرخت في وجهه : يا لك من نذل ! خطر في بالي أنك أحببتني يوما ما دون أن أدري .. رغم سماعي الكثير عن قصصك من البنات والنساء المتزوجات قبلت بك .

قال : لتغطي على فجورك .

قلت : لست فاجرة أيها الفاجر الحقير ! ولكني سأصير فاجرة بسببك .

قال : غير مهم ؛ بل سأصاب بالسرور لو رأيتك في حضن رجل غيري .

طفح الكيل ، كان زوجي لا يقربني بالشهر أو أكثر بحجة معاقبتي ، وهو يعاشر عشيقاته والخائنات ، وأعرف بعضهن ، يدخلن بيت العائلة بثياب الشرف والعفاف ، وكانت أخته

شفاء التي تبغضني أكثر منه توفر له مثل ذلك ؛ لأنها بغي وتخون زوجها .

كان أخي ثاني خلال سنوات الجامعة قد فسد ، وأكثر من الزنا حتى فاحت ريحته وتعالج من السفلس كما قيل .. التحق بالجيش بعد الجامعة كسائر الشباب ، ولما أنهى تدريبه الأولي عمل في المدارس العسكرية ، ثم تزوج من ابنة مدير مدرسة ، ووجدنا أنه من سكان درب القلعة .. فتاة اسمها ميساء وكان زواجه في منتصف أربع وثمانين .. وفي هذا السنة علمت أن مالا نجح في الثانوية ، والتزم بالدين والتدين .. وتفاجأت حقا بذلك .. مال يتمشيخ وكتبت له حول ذلك ، وكتب بصحة هذه الاخبار ،وأنه سيدرس معهد متوسط لتخصص المحاسبة في القسم التجاري ، ففرحت له من كل قلبي وأحببت لقاءه فاعتذر بشدة ، وكتب لا أنسى تلك الليلة السوداء ، فبكيت لكلامه ، وعلمت أن الجرح كبير وذلك عندما أردته أن ينام معي ولو ساعة .

***

المعهد فيه رجال يعملون مثلي ، لاحظت أن أحدهم يطيل النظر إليّ ، ويحاول التقرب إلي أكثر فقررت أن أقبل صداقته ؛ لأخفف من التوتر الذي يحصل بيني وبين مازن .

فرافقته للمسرح والمطعم وخلال فترة قصيرة أصبحنا أصدقاء ، وانتشر ذلك في المعهد .. هذا الصديق وزميل العمل كان يكبرني بعدد سنين ، دخل في الأربعينات عندما صاحبته ، كان هدفي التسلية وإراحة أعصابي من مازن ، ولم يمض وقت طويل حتى أخذ يظهر لي أنه محب لي منذ التحقت بالعمل معهم ، ويرى أنني الصديقة التي كان يبحث عنها .. طبعا لم أصدق ذلك .. وأعرف رغبته في جسدي .. وأنا تقربت إليه من أجل هذه الغاية ؛ لكن عليّ تمثيل دور الساذجة والبلهاء .. المهم أخذ يمهد لذلك بلمسي برغبة ، ويدعوني لبيته وشرب كأس معه .. وعلمت من الأول أنه مطلق أو هاجرته زوجته ..وأنا كانت لديّ الرغبة أن أسلم جسدي لرجل غير زوجي .. وأرى هذه التجربة ؛ لكني لم أحب أن أبدو متعجلة .

وبعد ستة شهور صحبته للبيت ، وتناولنا العشاء والشراب ، ولم يحدث بيننا أي جماع مدح واعجاب بي وبجمالي.. وخلال شهر كنت عشيقة له في الفراش ، ولم يختلف كثيرا عن مازن ، لم

يكن بتلك القوة الجنسية ؛ بل كان يأخذ أدوية لتقوية فحولته ؛ لكني رضيت به عشيقا يعبث بي كيف يشاء ؟

ورتبنا أن يكون لقاؤنا كل أسبوع مرة حتى يبقى الأمر خفيا عن زوجي مع أن ذلك لا يهمني .. فقد أصبح لي عشيق وإن كان يكبرني سنوات .. عشيق خير من لا شيء .

وكان يحاول إسعادي بهذا اللقاء وأن يظهر بالفارس القوي والعشيق الفريد مع أنني أرآه يتعاطى الأدوية لتقوية طاقته ، ولا يترك شيئا فيّ إلا قبله وداعبه موهمي بحبه وشوقه لجسدي .

قبلت به عشيقا مع أنه يكبرني بخمس عشرة سنة نكاية بهجر مازن لي ولكرهي لمازن .

كنت عندما أعود من العمل يوميا أمر على أمي إلا القليل من الأيام .. فلما أصبحت ذَا عشيق كنت استحم في منزلها قبل العودة للبيت ، وأتعشى معها واتصل بالبيت ؛ فإذا كان مازن في البيت أترك له خبرا بمكان وجودي أو أتحدث مع خالة أمي .. وهو لا يهتم بتأخري ؛ لأنه غالبا لا يعود للمنزل إلا بعد نصف الليل .. إما مع نسائه أو مع سهراته الماجنة .. فهو يسهر معهم في النوادي الليلية أو المنزلية .. وكانت والدته تعتني بالطفل أكثر مني بحكم أنني امرأة عاملة .

ذات يوم اتصلت بي امرأة تريد مقابلتي في البيت أو أي مكان .. وكان الموضوع عن مازن ، واتفقنا على مكان اللقاء في مطعم في أحد أحياء المدينة الراقية .

ولما التقينا وعرفتني على نفسها ، وأهم تعريف أنها صديقة لمازن ، ولها عليه أموال ، وأنها تفكر بتقديم شكوى ضده لدى المدعي العام.

فقلت لها : أنا لا أدري ما المطلوب مني ؟!

قالت : أنت زوجته فعليك التسديد عنه حتى لا يسجن .

ضحكت وقلت : أدفع عنه .. وهل هو معسر يا سيدتي ؟

قالت : لا يريد أن يدفع .. يتحداني ويقول : احبسيني .. وأنا من أجل خاطرك وسمعتك لم أقدم الشكوى .

قلت : ما طبيعة العلاقة بينكم ليستلف منك ؟

قالت : ضحك عليّ واتخذني خليلة ، وزعم حبه لي ، وأنه من غير امرأة ، وأخذ أموالا ؛ ليقيم بها مشاريع .. وأنا صدقت .. أنا امرأة مطلقة ؛ لذلك صدقته ، وظننت أننا في النهاية سنتزوج .

قلت : وبكم نصب عليك .

قالت : عشرة آلاف دينار .

قلت : مبلغ محرز .. هذا نصاب دولي وعلى مستوى .. ماذا تعملين أنت ؟

قالت : أنا طبيبة .

قلت دهشة : طبيبة .. وكيف تورطت معه ؟!

قالت : احتجت لحضرة محامي يا سيدة أولى .. فدلوني على مكتبه .. ورحب بي .. وأقنعني أن قضيتي ناجحة .. وإنني سأفوز فيها على زوجي الذي طلقني ، ويعيد لي الأموال التي أخذها مني ، وبعد عدة لقاءات أصبحنا أصدقاء ، ثم سلمته نفسي على أمل أن نتزوج ؛ لأنه زعم أنه غير متزوج .. وصدقت ذلك .. وأنت تعرفين كيف يضحكون علينا ؟

قلت : يضحكون علينا .. تابعي .

وتابعت : وخلال متابعة قضية طليقي أخذ يحدثني عن المشاريع والاستثمار وأنا مصدقة ؛ لأنني في النهاية سأكون زوجة له .. ثم عرفت أنه متزوج منك .. وأنا مجرد فتاة ليل وقضاء وطر ،فصممت على مقاضاته إن لم يدفع .

وبعد فترة صمت قلت : وهل تعتقدين أنني سأدفع عنه يا حضرة الدكتورة ؟ أتعرفين أين صرف تلك الأموال ؟

قالت : لا أدري .

قلت بزعيق وحقد : على السهرات الجنسية والقمار .

قالت : هو عرف كيف يضحك عليّ ؟ .. لعب على وطر الطلاق والزواج وهو محامي .

عدت للصراخ : هو فاجر ومجرم ، لا يمكنني أن أدفع فلسا .

قالت : وسمعة العائلة وابنك عندما يحبس أبوه .

قلت : أنا أدفع ثمن فجوره .. اذهبي لأمه فهي تملك الكثير من الأموال ؛ لعلها تصدق حكايتك وتدفع لك .. فهي يهمها سمعة العائلة أكثر مني .

قالت : أترين ذلك ؟!

قلت : نعم .

قالت : شكرًا لك .. يعني أنك غير مهتمة بحسبه .

قلت : ولا موته .. ولست أنت أول عشيقة وخليلة له .

قالت بانكسار : عرفت ذلك مؤخرا .

وودعتها متمنيا لها النجاح ، وعدت لبيت أمي وقصصت لها هذا المغامرة لابن خالتها .

فقالت أمي : قد تكون كاذبة ، وطمعت بقرشين منك .

ضحكت وقلت : ممكن يا أمي !

كانت حياة شقيقي ثاني صعبة بعد سنة زواج ، كانت ميساء ترغب بالولادة فور زواجها ، وهي من أسرة تحب ذلك ، ومضت سنة زواج ، ولم يحدث الحمل ، وبعد سنتين من الزواج زادت المشاكل ، ورغبت ميساء بالانفصال عن زوجها ، وكان ثاني متمسكا بها .. فهو قد ملّ من الزنا والبنات لما انتهى من الجامعة والجيش .. والمفاجأة أني سمعت أن مالا تدخل في عدم طلاق أخي من ميساء .. ولجأ ثاني إليه للتدخل في قصته ، ونجح في تأجيل الطلاق لسنتين أخريتين ، وأن صلحا حدث بين ثاني ومال أو عودة لماضيهما .. وسافر ثاني إلى الخليج للعمل كمدرس متعاقد ، ولما قضى موسمين رجع ، وتم طلاق ميساء بعد فشلهم بالحمل ، وأخذ يفكر بالزواج من جديد كما كان يتحدث مع أمي وأبي.. وكان البحث صعبا عن امرأة تقبل به كشاب عقيم إلا امرأة لا ترغب بالذرية .

لما رجع ثاني من العمل في الخليج ، وقد طلقت زوجته عادت صداقته لمال وكان يذهب إليه رغم أن مالا خلال عمل ثاني في الخليج درس في معهد شرعي ؛ ليكون شيخا حقيقيا وحصل ذلك .. عادت صداقته لمال ، وكان ثاني يريد الزواج .. وأنا اكتفيت بساعة أو ساعة ونصف

أقضيها مع عشيق المعهد في يوم من الاسبوع ؛ لذلك كنت غير مهتم بهجر مازن لجسدي فوجدت البديل كما يقال .. وكان الرجل يكتفي بهذا اللقاء ، ويرى أنه أشبع رغبته وقضى وطره .. وكان أحيانا يطمع بالمزيد من الزيارات فأقول يكفي مرة .. وكنا نرتب لهذا اللقاء من خلال المعهد .. وكانت أغلب زيارتي لشقته ليلة الجمعة ، فيجهز الشراب والدواء ولما يأتِ الليل أذهب لبيته بسيارتي ، وأقضي معه الوقت والخمر والزنا وأعود لبيت أمي .. وإذا لم تكن لديّ رغبة اعتذر له فيقبل اعتذاري .

ولما حضرت عشيقة مازن الطبيبة تطلب المال مني ، ورفضت الدفع، ذهبت فعلا لأمه ولم تحصل على شيء ، فرفعت قضية على مازن ، ولما عرف جديتها بعودة فلوسها إليها ، تفاهم معها واضطر لمصالحتي وأن نعود للفراش من جديد ، وأن عليّ الحمل لطفل آخر ، فقبلت وساهمت بسد دينه ، وهجرت صاحبي ، وقلت حين تعود المشاكل سأعود إليك ، فعرف الرجل الهدف من إقامة علاقة جنسية معه ، وتقبل الأمر ودعا لي بالتوفيق ، وفعلا أصبحت حاملا خلال ثلاثة شهور من الصلح ، ومازن التزم الهدوء خلال هذه الفترة ، ولما علم بالحمل بدا يتهرب من النوم معي بحجة أنني حامل ويعود للسهر والحياة خارج البيت .

وبعد حين ولدت طفلة بصعوبة كادت تذهب بحياتي ، وفرحت بمولودتي الجديدة ، وتم علاجي من مشقة الحبل بربط المواسير كما يقولون لمنعي من الحبل ثانية ، وحمدت الله على نجاتي من الموت.

وكان ثاني ما زال يبحث عن امرأة ، فعرض مازن الزواج من أخته الأرملة شفاء التي ترملت منذ شهور بعد حملي بشهر أو أكثر ، ونصحت أخي رغم معرفتي بفساده الابتعاد عنها ، فهي مستعدة لإحضار رجل للبيت أمامه إذا أعجب بها ورغب فيها .. فهي مستعدة لذلك ، وكانت تفعل ذلك في حياة زوجها .

ومن المعلوم في نظري أن أي علاقة تقوم بين امرأة ورجل خارج العمل نهايتها علاقة جنسية ؛ ربما تبدأ سريعا أو رويدا رويدا .. أما صداقة وأفكار هذا استدراج وسخرية من بعض .. وهذا

جربته لما تعاملت مع زميلي في المعهد بعد حين تكشفت نواياه ونواي .. وأنا قبلت ذلك ؛ لأني أريد ذلك وهو أكيد فعل ؛ لأنه يريد ذلك .. ولم أر أن مازنا يستحق المحافظة على شرفه .. وأنا لم يعد يهمني ما يقال عن الشرف .

منذ أن حملت ومازن ابتعد عني كزوج ، وعاد لمجونه ولهوه .. ولماذا الناس يتزوجون ؟ وأنا بدوري عدت إلى العشيق الذي تقبل العودة بكل فرح وسعادة.. أنا طبعا لم أزعم أني أحبه ؛ إنما هو شريك في السرير .. وكان يستقبلني كزوجة عادت إليه .. وأنا لا أعرف لماذا طلق زوجته أو طلقته ؟

في المعهد ذات يوم قلت له : قلت الليلة موعدنا .

فقال : أنا جاهز .

ولما ذهبت إليه ليلا وجدت أن لديه ضيفا ، فتظاهرت أني قادمة لزيارة عمل ، وسلمت على صاحبه ، وكان رجلا من جيله ، وبعد حديث يسير علمت أنه عاجز عن النوم معي ، وأن صاحبه مستعد ؛ لأن يكون بديلا له هذه الليلة . ففكرت قليلا وبعد شرب قليل من الخمر ، وافقت وسلمته جسدي ، وودعتهما وأنا أزعم أني استمتعت بصحبتهما .

وعاتبت صاحبي في اليوم التالي ، فقال : كنت مريضا ، ولن أحقق لك رغبتك وأنا أعرف رغبتك .. وهو مثلي من غير زوجة ويعيش على احسان الصديقات.. والرجل مستعد للعودة إذا قبلت ذلك .

قلت : سأفكر.. الرجل أقوى منك جنسيا .

أصبح لي عشيقان ، كنت أحيانا أقبل لقاءهما بي معا ، ومرات أكتفي برفيق المعهد ، لم يعد الجنس عقدة ومحرجا لي .. كانت أمي تحس بسقوطي وبيعي لجسدي ؛ لتعويض هجر مازن لي .. فاضطررت أن أعترف لها باتخاذ العشاق وسكتت فماذا ستفعل ؟ وهي تعلم ما بيني وبين مازن .

والفتاة أو المرأة إذا تناولت الشراب وسكّرت ماذا يهمها من يقضي شهوته معها ؟ الخمر مصيبة .. فهي ؛ ربما لا تميز رجل عن آخر .

تابت أمي وأبي بعد عودة شقيقي من السعودية ، ترك أبي وأمي الخمر ، وبدأت أسمع برغبتهما بالحج لتكفير ذنوبها ، وكان يكثران من الحديث عن مال الشاب الصغير كيف تاب ورجع للإسلام ودرس الشريعة وتعين اماما لمسجد ؟ وهذا كله ينقله لهما ثاني .. وتمنيت من كل قلبي أن تعود الأيام الخوالي ، وأن نعود لتلك الجلسات والمناقشات .. وأن يعود الحب الصامت لمال .. ما زلت أهواه رغم التغير الذي حل به .

ثم حدث الحج حقيقة ، ذهبت أمي وأبي للحج ، وأنا كانت حياتي رتيبة عمل في المعهد من الصباح حتى المساء ، أطفالي مع جدتهم منذ خروجي للعمل ، وفترة الصباح أجلس معهم بعض الوقت .. جلال دخل المدرسة .. وعشاقي لهم ليلة في الاسبوع أو ساعات .. وهكذا مضت الأيام .. وهجري من مازن كزوجة .. يزعم أنه لا يستمتع بمعاشرتي ، ويراني عجوزا .. وأنا تلك الأيام لم أبلغ الثلاثين من العمر ..وحاول عشيقي الثاني تكرار اللقاء مرتين في الاسبوع فقلت له : أنا أعرف أنني لست المرأة الوحيدة معك .. فلنبق على هذا الترتيب وإلا هجرتكما .

لما رجعت أمي من الحج مرضت ، وزارنا مال ، والتقيت به من جديد وعادت أحلامي القديمة والشوق للاستمتاع بجسده الشاب ،كما كان يحدث معي في السرير وأيام مراهقتي ؛ ولكنه أبعد ما يكون أن يحقق لي ذلك .. فهو اليوم متدين ومتمشيخ حقيقة وواقعا وإماما لمسجد ، ولا يعني هذا أن الشيخ ملاك ، ونصحت شقيقي ثاني أمامه بعدم نكاح أخت مازن ونصحه مال بعدما دار بيننا حوار وعتاب .. وتزوج ثاني من الأرملة شفاء وعاش سنتين في جحيم وشقاء كما يقول وأصبح مدمنا على الشراب والخمر ليل نهار حتى اضطر لطلاقها ، وطلقت أنا معه .. وأنا عدت لبيت والديّ وإن كانت أكثر أيامي فيه .. ولم تمكث أمي طويلا بعد طلاق ثاني.. وماتت .. وحزنت على أبي حزنا شديدا .. فقد أصبح وحيدا في شقته حتى أنني فكرت بالتقاعد من أجله وقلت : ماذا أفعل له ؟ أنا ابنته الابنة ليست كالزوجة .. وكان والديّ تقاعدا منذ زمن قبل طلاق ميساء .

غرق ثاني بالشراب ، وترك التعليم بإجازة طويلة ، وذات يوم رغبت بالاستحمام وخلعت

ملابسي كلها لدخول الحمام ، ولم أرتدِ الروب بعد وشعرت بدوخان .. وأنا كنت أنام في بيتي عارية من أجل إغواء زوجي وذلك في أول زواجنا ، ولما لم يهتم بي عدت للنوم بثياب النوم . نمت أو ارتميت على السرير حتى تزول الدوخة وأعود للحمام للاغتسال وكنت ليلتها قد عدت من بيت عشيقي ، ولم اغتسل بعد ؛ وبينما أنا نائمة دخل ثاني لا أدري لماذا ؟ فوجدني عارية فاقترب مني ودنا وهمس أولى أولى ففتحت عيناي وظننته يحاول اغتصابي .. فصرخت ففزع أبي وظن ما ظننته ، وقمت عارية ، وأحضرت سكينا من المطبخ وضربته بها ، فتلقاها بذراعه وبرر ذلك فقال : فكرت أنها مغمى عليها . وأبي يصفع به ثم قال : لماذا أنت عارية ؟

انتبهت لنفسي ، فوضعت الروب على بدني وقلت : كنت سأستحم ، وشعرت بدوخة فطرحت نفسي على التخت .

فهذه قصة الاعتداء عليّ التي بررها ثاني فقال : دخلت الغرفة أبحث عن دخان . فوجدني على تلك الهيئة فظن أن شيئا حدث لي اثناء الاغتسال ، وحضر يزيد الذي يسكن في الطابق الأرضي مع أبي بعد وفاة أمي .

وبعد ذلك بأيام وأثناء ترحيلي لبيت خالتي لقضاء بضعة الأيام حضر ثاني لبيت الأسرة كما علمت ، وتحدث مع ثاني ، ثم حدثت توبة ثاني ، وهجر البيت ؛ لأعود للعيش مع أبي ويزيد ، وعاد للتدريس ودراسة ماجستير الشريعة والدكتوراه فيما بعد .

وأنا بعد الحادثة هجرت صديق المعهد ، فقد اتهمني ثاني بالفجور ، وبيع جسدي .. ولا أدري كيف عرف مازن أو هو ؟

وسافرت إلى فرنسا للعمل في معهد هناك ،وقضيت سنتين فيه ، وكان لي صديق على طريقة الغربيين ، ثم عدت للبلاد ، وقد أنهيت علاقتي بالمعهد ، ووجدت صديق المعهد قد مات ؛ بل علمت بموته وأنا في فرنسا أثر مرض عضال .

وكتبت لمال رسالة أطلب منه أن يجد لي زوجا صالحا ، وإنني راغبة باللحاق بها .. فوعدني بذلك إذا تيقن من توبتي .

مات أبي موسى أمير ، ولبست الحجاب كما أراد مال ، وعرضت نفسي عليه زوجة ثانية .

فقال معتذرا : لديّ زوجي ، ولا رغبة لي بالتعدد يا أولى .. وأنت أختي وسأزوجك .

وتحقق ذلك بعد شهور ووفى بوعده ، وأنا اليوم زوجة سعيدة ، لم أكن أول زوجة للرجل ، كان متزوجا قبل ذلك ، ولما تدين تركته ابنة عمه لتدينه ، وعشت معه لليوم أحلى أيام الزواج ، وأصلي وأصوم ، ولم يسألني يوما عن الماضي ، ويقول : الماضي للعبرة يا أولى ! ونحن أبناء اليوم .. وكنت أتمنى أن تلدي مني ؛ ولكن مالا قال لي : إنك كدت أن تموتي في ولادتك لابنتك وحدث لك ما حدث .

قلت : يا حبيبي وقرة عيني لم أعرف الدين إلا منذ عهد قريب من سنة ، ولم يكن باستطاعتي عدم التوقف عن الولادة .. كانت حياتي في نظرهم أهم وإذا أنت بحاجة لأولاد فتزوج عليّ فمال حدثني عن ذلك ؛ فأنا لديّ شاب وابنة .

وضمني إلى صدره بحنان وهمس في أذني : عندما يشاء ربي !

حديث ثاني

قصتي مع مال قصة حياة ، لم يكن الفتى ابن حارتي ، ابن النادي المالي نادي العائلة بحكم الوظيفة ، ولا نادي الأقارب وبعض الجيران الأغنياء ، تعارفنا في مدرسة الحسنات الكبرى في المرحلة الثانوية ، وسأذكر من خلال القصة لمحات عن المرحلة السابقة ، المدرسة جمعتنا ، لم نكن أبناء فصل واحد ، كانت شعب الأول الثانوي كثيرة ، كنت أحب لعب كرة اليد ومارستها في النادي المقاصد ، وفي المدرسة الثانوية ، جميع الملاعب كرة القدم واليد والطائرة والسلة وقاعة جمباز وحفرة الرمل للقفز ، كانت مدرسة مهمة فيها مختبرات ومكتبة متميزة .

التقينا في ملعب كرة اليد ، ومن خلال اللعب والاحتكاك تعارفنا ، ثم ازداد التعارف نتيجة التمرينات ، حدث بيننا نزاع خفيف ، وحين انتهى أخذنا نعتذر لبعض ، وكل واحد يبرر انفعاله .

ونتيجة لهذه المنازعة أصبحنا أصدقاء ، وكبرت العلاقة بيننا ، ووجدت أن الشاب يدخن مثلي فصرنا ندخن سرا في المدرسة مع بعض رفاقه ورفاقي ، ثم تطورت العلاقة لما استثنينا من اللعب مع فريق المدرسة ، واكتفينا باللعب لمجرد اللعب ، وعرفني على مقهاه المفضل في وسط المدينة مقهى الذهب في سوق الذهب ، وكان له رفاق يحبون الافلام السينمائية ، فشاركتهم تلك الافلام ، وكانوا لا يحبون المسرح كأسرتنا ، وتعمقت العلاقة بمال دون الآخرين ، ولما كان ينزل للمقهى ماشيا لوسط البلد يمر من عند بيتنا في درب القلعة ، ويأخذني معه إذا رغبت ،وكان من احترامه لي يعود معي حتى لا أرجع وحيدا في الليل يصحبني لبوابة البيت ويودعني ، ويتابع عودته لحي النزهات الكبير لوجود أحياء أخرى تحمل هذا الاسم .

وكان شابا مثقفا وقارئا ممتازا للكتب غير المدرسية ، وله هوايات أخرى ، وكان في الركض سريعا ، وكان في كرة القدم لاعبا ومشجعا للنادي الذي أشجعه ، فزاد تعلقي به ، وأخذ أصحابي في الحي يختفون من حياتي ، ويندر اللقاء بهم ، وخفت علاقتي مع البنات سواء في شوارع المدينة أو نوادي العائلة ، وقلّت زيارتي للنوادي ، وتلك الايام في الفترة الإعدادية لم

أكن ناضجا جنسيا كما نضجت في أول الثانوية حتى أنني تورطت في علاقات جنسية كاملة مع نساء متزوجات يعملن في الدعارة مقابل بعض المال ، ولكني كنت مقلا من الاتصال بهنّ .. كان مال يحذرني بقوة من الانزلاق في الجنس والعلاقات الآثمة ، وأن هؤلاء النساء قد يحملن الأمراض الجنسية لكثرة ما يمارسن البغاء مع رجال دون فحوصات وعلاجات ، فاقتنعت بكلامه ؛ ولربما يمر أكثر من شهر دون الوقوع في الزنا ، وعجبت من عفة صاحبي رغم حبه وكتابته لرسائل الغرام لرفاقه ، أو معارفه بناء على رغبتهم ، ومع حفظه لمعلقة أمرؤ القيس التي تتحدث عن غراميات ذلك الشاعر مع عُنيزة وفاطمة وغيرهن من النساء كحادثة سرق ملابس السابحات .

نتيجة لذلك سمحت لصديقي أن يدخل البيت لرغبة أمي باستقراري في البيت ، والابتعاد عن البنات ، فقد كانت لي صديقات من بنات العائلة والنوادي ، ولي غراميات لطيفة لم يدخلها الجنس لعدم بلوغي ونضجي الكامل ، مع وقوع ذلك لبعض رفاق النادي الأكبر سنا ، حتى أنني رأيت شقيقتي علا أكثر من مرة تعانق أو يعانقها بعض الفتيان ، فيعتذران ويزعمون أنهما محبان لبعض ، أما أختي أولى فلم يصدف أن رأيتها تعمل علاقة عاطفية مع أحدهم ، ولم أسمع وأمي علاقتي بها قوية ، وأطلعها على الكثير من أفعالي ، وتنصحني بضبط علاقاتي مع الفتيات وحدثتها عن أفعال علا ؛ لأرى ردة فعلها فقالت: مراهقة ! والمراهقات يحببن سماع كلمات الحب والغزل كما تفعل مع صاحباتك .

رحبت أمي بدخول مال لبيتنا وأحبته كما صرحت لي بذلك ، وكانت تقوم على خدمتنا ، وتجلس معنا ، ثم تقبل والدي هذه الصداقة ، ورآها جيدة لي للبقاء في المنزل وقتا أكثر والدراسة أكثر .

لم يكن مال صديقا ورفيقا مزعجا سواء في المدرسة أو الملعب أو المقهى اعتبرني أخا له وصديقا ويطلعني على أسراره وأخبار أصدقائه ،فكبرت الثقة بيننا حتى اعترفت له بمغامراتي الجنسية فلم يغضب مني ؛ بل أقر أن له أصدقاء وقعوا بما وقعت به ، وما كان له إلا أن ينصحهم كما

ينصحني ، فقلّت ذكرياتي السيئة مع البغايا ، كنت أخاف من معاشرة الأبكار لصغرهن وخشية وقوعهن في الحمل ، والاساءة إلى ما يسمى غشاء البكارة ، ثم الاجهاض ، مع أن بعضهن فقدن ذلك لقضاء رغباتهن الجنسية أو محاولة إيقاع أحدهم للزواج منهن ، كما حدث مع أحد رفاق المدرسة ؛ لكنني سقطت في براثن وحمى الاباحية ، وتمنيت وجود الجواري التي كانت في العهود القديمة التي قرأنا عنها في الكتب .

كانت علاقة مال في البيت في بيت العائلة محصورة بي ، وكانت أمي إذا لم يكن عندها أمر خارج البيت تسمح لنفسها بالجلوس معنا ، وكان مال يقبل ذلك ، ولا يتحرج منها ، ولم يعترض على ذلك .

ويقول : أمك خائفة عليك تخشى أن أفسدك بأفكاري وخيالي .

فأقول : ولا تهتم ، أمي تعرف من أنا ، وتعرف فسادي وغزلياتي ، ولا تقول شيئا إنها تريدني أن أنجح في الثانوية العامة ، وأتوظف مثلها ، وأدبر أمري في الحياة ؛ بل إنها حدثتني عن الزواج حتى ابتعد عن العاهرات .

فيقول: لو فعلت ذلك كان أفضل لك من الزنا .

كنت أرافق مالا للمقهى ، وذلك عصرا ، يمر عليّ إذا وافقت على ذلك في المدرسة ، وتعلمت منهم بعض الألعاب ، ولا أذكر أسماءها وقوانينها .

الحقيقة أن الجلوس مع مال ولو لدقائق ممتع تستفيد لعبا وثقافة وحتى أحيانا يتحدث في السياسة التي أمتعض من الحديث فيها ، ولا أحبها ، ممكن بسبب تكويني البيتي ، فلا ذكر وأهمية لها في البيت .

مضت السنة الأولى ثانوية بسلام ، وعلاقة حسنة مع مال ، وفي الصيف عرفت من مال أنه يعمل ويشتغل هنا وهناك ؛ ليصرف وينفق على نفسه ، فهو ابن أسرة فقيرة ، أولا بأول ، وله عدد من الأخوة والأخوات ، وقليلا ما يجلس في البيت ، النوم فقط ، وعلاقته جيدة مع الأسرة لكن الوضع الاجتماعي والحالة المالية تدفعه للعمل ؛ فهو يدخن ، ويشتري الكتب والروايات

وغرامه بذلك عجيبا .

يقول : إنه يشتريها من الصف الخامس ويقرأها ، وحتى في مكتبة المدرسة الثانوية كان محبا لذلك ، فأتحرر منه لما يذهب إليها ، وأخبرني أنه قرأ فيها بعض الكتب عن الجزائر والاستعمار يهوى سوى الأدب قراءة كتب التاريخ وسير التاريخ سواء علماء أو قادة .

لا أنكر أن صداقتي القوية لمال في المرحلة الثانوية حمتني من المغامرات الجنسية كثيرا ، وقللت منها ، كانت ثورة الاباحية والشهوانية تجتاحني بقوة ، فكنت أغامر قليلا حتى أني ابتعدت عن شباب أفلام الاباحية ، ومجلات العري التي كنا نتبادلها أيام الثالث الإعدادي ، حتى في النادي كنّا نتبادل تلك الصور زاعمين ؛ بأنها خفية عن الآباء والأمهات ؛ لكن الشهوة والرغبة والتجربة عندما تعصف بالمراهق مثلي الذي لا قدوة له ، ولا مانع يمنعه ، ولا أحد يزجره ويحذره ، فالراجح أن يتلوث ويزل ويهوي إلى الرذيلة .. انتفعت بصحبته تلك الأيام ، في أشهر الصيف قلّ لقائي بمال إلا ببعض الجمع عندما يزورني في البيت ، وأتمشى معه أحيانا في شوارع الحي ، لا أريد أن تسمع أمي أو أحد في البيت همومي الجنسية وسقطاتي ، فكان يقضي الوقت في لومي وخشيته عليّ من النساء الفاجرات .

عدنا للمدرسة وعدنا للقاء في البيت بكثرة ؛ ربما ثلاث مرات في الاسبوع.. وأنا أحب ذلك ؛ لأنه يمنعني من مرافقة شباب الجنس وفيديوهات الاباحية ، ويكثر من لومي ، وأنا فعلا أشعر بحاجة إلى ذلك ؛ فلم يكن لأبي ولا أمي أن يمنعاني من ذلك ، رغم أن علاقتهم ببعض عادية وقليلة النزاعات بينهم ، ويذهبون لنادي المالية في الغالب معا ، ونحن نذهب بمعيتهم خاصة في فترة الطفولة الاولى .. أنا بعد المرحلة الابتدائية قللت كثيرا من مرافقة هؤلاء الفتيان للسينما أو المسرح .

عدنا لتلك اللقاءات والسمر في البيت ، وقلت لكم الأسرة أحبت ذلك ، حتى شقيقتي أولى رغبت بالتعرف عليه مباشرة .

وأخرجت توأمي من قممها لما أكثرت لها من الحديث عن مال وحبه للقراءة مثلها ، كنت

أحب أن تجلس معه لتلهو بالحديث والكلام معه ، وأعرف أن مالا لا يحب محاورة البنات مثلي ولكنه استطاع الحديث مع والدتي ، وحتى والدي لما يكون تاركا للخمر ، ومحبا للثرثرة مع الشباب مثلنا ..فكنت أحزن على أختي المحبة للعزلة والانعكاف في حجرتها لقراءة الروايات وكانت أمي تقبل ذلك ؛ لأني مرة قلت لها : لا يمانع مال بحضور أولى جلستنا . فقالت : وأنا لا أمانع ، فالشاب محترم .. ما رأيته مرة يحاول الإساءة إليّ بالكلام وحتى النظر ككثير من رجال النادي ، فهو يراني كما تراني أنت ؛ ولكن دعها تفعل هذا بنفسها بقناعتها . وحدث ذلك ذات ليلة عادة كانت تبدأ زيارات مال للبيت بعد آذان المغرب أو العشاء ، وكانت الأسرة في الخارج ولم ترافقهم الفتاة ، وتطوعت بخدمتنا بدلا عن أمي ، والتقت بمال وأعجبت به وأريحيته وحبه للقراءة والروايات ، وأفسحت ليلتها المجال لها للحديث معه ، وهو تحدث معها بكل انبساط وكأنه يحدثني ، وكان هذا عجيبا في نفسي ، حتى ظننت أن لمال صديقات يتحاور معهن ، رغم تظاهره بكره الجنس النسوي ، وانبسطت ليلتها أولى به ، وشكرتني فيما بعد على سماحي لها بالجلوس معه ومناقشته ومجادلته. وأصبح هذا أمرا مقبولا لدى العائلة .

ولم أدرك عمق علاقة أولى بمال إلا في وقت متأخر ، أحبت الشاب أكثر من المتاح ، أنا لم أكن ضد أي علاقة عاطفية لها مع أي شاب .. هذا أمر لم يكن يهمني كثيرا ؛ ليس قلة غيرة ؛ إنما هكذا تربينا أن البنت مثل الشاب ، وكنت أعجب من عدم تكوينها علاقات مع شباب الناديين وحتى مع أبناء الاقارب ، بعكس علا التي أعتقد أنها عاشت لحظات وقصصا عاطفية سواء في مرحلة الاعدادية او الثانوية ، كانت تصغرني بعامين ، كانت علاقتي بهم علاقة أسرة أبناء وبنات رجل وأم .. كانت أمي لا تحب تهورات علا ، وكثيرا ما سمعتها توجهها ، والمهم لأمي أن تصل البنت لبيت زوجها عذراء بكرا ، وتغض الطرف عن علاقتها مع أبناء الاقارب.. وكنت أرى أولى جامدة ؛ فلذلك رحبت بوجودها معنا ؛ لكن أن تحب مالا كما ظهر فيما بعد فهذا أدهشني حقيقة ! وهي اكتشفت صعوبة الزواج منه بنفسها ، كان المستوى الاجتماعي يمنع ذلك .. فقر مال ، ونحن أبناء سن واحدة أحد الحواجز الأخرى ، وعادة يكون عندنا

الزوج يكبر الفتاة بسنة على الأقل إن لم يكن سنوات .. فكانت كما ظهر تحبه بصمت ، ومال لم يسع إلى ذلك ، ويعتبر فعل ذلك خيانة ؛ لثقتي وثقة أمي به ، حيث كانت تقبله وتستقبله كابن لها ، وتخدمنا بنفسها ، وتشاركه مشاكلها في النادي والعمل ، وتسمع رأيه ، وهو يبادلها الصداقة وكان الجنس بعيدا عنه وعنها ، رغم أنهما رجل وامرأة ، فلم أسجل عليه حكاية من ذلك ، فكيف مع أمي التي أحبته كابن لها واحترمته ؟ وحتى لو أحب أولى فعلا ما كان يقبل بالخيانة والعشق والمواعيد الخفية ، كانت صداقتنا قوية ، وأنا تساهلت مع أولى بالجلوس معنا ؛ لتنفس عن وحدتها وعزلتها ، وأمي وحتى أبي لم يبديا أي اعتراض على جلوسها وحديثها مع مال ، وأنا تفاجأت عندما رأيت رغبتها الشديدة فيما بعد للزواج من مال المجند بمبلغ بسيط ، لا يكفيه دخان ومواصلات ، ولما حاولت ذلك اعتذر لها ، وكان جيدا لها ولنا .

كانت فترة الصيف فترة انفلات مع الجنس الآخر ، بغياب مال أصدقاء السوء كانوا هم أصحاب النفوذ عليّ .. من أين كانوا يأتون ببائعات الهوى؟ لا أدري صدق ذلك ؛ لكنهن موجودات ، وبمبالغ بسيطة لا تكاد تصدق ..إنهن مومسات غير محترفات كما نسمع عن المحترفات .. ولا أرغب بالتوسع بالحديث عن هذا الالم القاتل .. مستنقع الجنس قذر وعذاب ..وكنت أعجب من مال وغيره ممن يملكون شهواتهم امام الموج الهادر من الاباحية.. لم يكن مال مسلحا بالحماية القوية للدفاع عن نفسه امام الاغواء والاغراء .

وجاءت السنة المهمة والاخيرة ، وعاد مال ؛ ولكن بزيارات أقل بسبب الدراسة المكثفة ، وكثرة دروس الخصوصي ومراكز التقوية لمادة الاحياء الكيمياء الفيزياء الانجليزية الرياضيات لم أكن ضعيفا دراسيا بكل هذه المواد ؛ ربما الموضة التي دفعتني لدراستها سواء في البيت أم مراكز تقوية كنت أعلم أن مالا لن ينجح ؛ لأنه هو يقول ذلك ، ولا يحب دروس التقوية رغبة أو قلة مال .. نجحت ونجحت أولى بعلامات أعلى مني .. وكان الفراق شبه الكامل أو الكامل هي ـ أعني الصداقة واللقاء البيتي ـ خفت في فترة الدراسة ؛ ولكنها بعد الثانوية ستصبح ضعيفة بالتأكيد .. نحن سنصبح في الجامعة .. وهو إما أن يعيد أو يذهب للجيش .. وفرحت

صدقا لما أخبرني بلقاء عابر أنه سوف يعيد لرغبة أمه بذلك ، فأبوه كما بدا من كلامه لا يهمه نجاحه أو رسوبه ، فله أخ شقيق ترك المدرسة قبل الثانوية العامة ، ولم يكترث له والده .

أنا بالنسبة لي مال أصبح خارج الأصدقاء ، وأما أولى فكانت تكتب له وتقول أحيانا يرد على خطاباتها .. أنا لم يكن بيني وبينه أي رسالة إذا التقينا بظرف ما نعاتب بعضنا بأدب ، ويتمنى كل واحد لصاحبه الخير والتوفيق .

علمت من أولى أن الرجل لم يكمل الدراسة ، وتركها والتحق بعمل الكهرباء والطوبار ، وكنت أسمع بعضا من أخباره من بعض معارفه الذين ألتقيهم بغير ميعاد .. وأنا ما زلت أحبه وأقول لأولى سلمي عليه عندما تكتبين له .

منذ وطئت قدماي الجامعة وكلية العلوم تعرفت على الجنس الآخر ، وبدأت أزعم لهن الحب والهوى ؛ وربما أمكث مع الواحدة أياما أو أسابيع ، وأنتقل لغيرها ، وهي تفعل مثلي ، وبعضهن أسهر معهن سهرات ليلية ، وراغبات بالعلاقة الجنسية الكاملة ؛ وكأنها جاءت للجامعة من أجل ذلك ، وإذا تيسر المكان فلم أكن أقصر ، حتى علمت أنني أصبت بمرض جنسي بكتيري ربما كان في أواخر السنة الثانية ، يسمونه الإفرنجي والسفلس والزهري .

كانت صدمة صاعقة وقاتلة ، وتذكرت نصائح مال ، وأخذت بالعلاج سرا ، ووقفت أمي وأبي معي . وقالت :كم نصحتك يا ثاني من تلك الأفعال وتقول لي إنك تبالغين يا أمي؟!

هجرت النساء والزنا مرغما كما يقال ، وأخذت بالعلاج ، وأخبرني الطبيب بالتحسن ، وأن عليّ أن لا أقرب الجنس قبل الشفاء التام ، في آخر السنة الثالثة رغبت أولى بالزواج قبل إنهاء الجامعة ..كان قريب لأمي قد أكثر من ذكرها ، وتحدث معي من أجل الضغط عليها ، وأنه مغرم بها ، وبأخلاقها وبعدها عن الرجال ، كما اشتهر ذلك عنها.

واعترفت لي بحبها لمال ، وأن حبه رغم بعده عنا ما زال في قلبها ، وكان ذلك مفاجئا لي حقا .. فمال ذهب للجيش ، وهو فقير لا يملك مالا ؛ ليتزوج ، ووضع أسرته لا يستطيع مساعدته في زواج ، وعرضت أنها ستعرض الأمر على مال ، وأنه إذا رفضها زوجة ستقبل بالسيد مازن

المحامي المتخرج من سنوات ، ويعمل في مكتب خالي المحامي ، وكانت أمه خالة أمي ، ورتبت لقاء خاصا بين مال وأولى في البيت بوجود أمي ، ولما عدت في الليل ، وجدت أن الحزن يخيم على البيت ، وأن مالا رفض الزواج من الفتاة رغم محاولتها إقناعه بذلك ، وأنها ستساعده ماديا حتى يقف على رجليه ، وأن عملها سيكون فور التخرج .

رفض السيد مال لصداقته لنا ، ولمعرفته بمن هو ؟ أنا لم أحاول وأسعى لإقناعه بها زوجة ويا ليتني فعلت ! .. نحن الفارق المالي والاجتماعي بيننا للأسف كبير ، وكان مهما في العائلة، ولم يكن بينهم أي اتصال عاطفي أيام الثانوية ، ولا بعدها كان حب من طرفها وحدها ؛ بل علمت من أمي فيما بعد ، بعد سنين أنها حاولت إغوائه بمضاجعتها فأبى وهرب .

تزوجت أولى في الصيف ، وأنهت السنة الرابعة كزوجة ، وأنا أعرف مازنا ، كان أسوأ مني في علاقته بالنساء والبنات ، وسمعته معروفة في العائلات القريبة ؛ ونحن نغرش عن أي علاقات جنسية خارج الزواج لأي رجل في العائلة ، فهذا معروف في العائلة التساهل بعلاقة الرجال بالنساء ، حتى البنات نسكت ونتستر إذا حدثت أي إساءة لبنت من أقاربنا أدت لفقد بكارتها وزناها ، وهذا المسمى الصحيح ؛ لكن هكذا تعلمنا .

وكان حظ أولى هذا الانسان ، فعليها أن تتعايش مع هكذا رجل . انهيت الجامعة بسلام ، وتخرجت من كلية العلوم ، ويمكنني أن أعمل كمدرس أو في مختبر .

وكان التخرج في عام اثنين وثمانين ، بعد أربع سنوات دراسة ، ثمانية فصول عليّ أن التحق بالجيش ، وفعلا في شهر أيلول ذهبت لدورة مشاة أساسية هكذا تسمى ، تستمر ثلاثة شهور وبعدها عينت في مدرسة عسكرية لتدريس الطلاب في المرحلة الاساسية ، ثم نقلت إلى المرحلة الاعدادية .

وعاد بي الحنين للنساء ، فكان الزواج وعن طريق زميل في التدريس عرفني على مدير مدرسة لديه بنات في سن الزواج ، والغريب أو القدر أن هذا المدير يسكن في حي درب القلعة ، وذهبت مع أمي ورأينا العروس ، وكانت حسناء ، وقد درست معهد متوسط ، وتعمل في مستشفى

محاسبة ، وتزوجتها فور إنهاء خدمة العلم .. زوجتي المحاسبة اسمها ميساء جميلة وذات خلق بمقياسي ؛ ولكن الزوجات ثقيلات في التعامل مع الازواج خاصة في العلاقة الحميمية ، تجده كأنه واجب عليها يجب أن تخلص منه ، لا يفعلن كما تفعل بنات الهوى من الإثارة والإغراء ، همها الأول من تلك العلاقة الحمل والولادة ، وليس إمتاع الزوج ، ومن كان مثلي قد يزيغ ويعود للانحراف ؛ ولكن مرضي الجنسي السابق دفعني للصبر ، وتحقيق رغبتها بالحمل ، قد فشلت ، فما زلت أعاني من تبعاته أقصد المرض .. وهذا أمر أخفيته عنها ورأيت بأن لا داعي لفتح صفحات الماضي ، وكانت الفحوص تؤكد أن الحمل قد يقع في أي لحظة ؛ لكن أسرة الفتاة خاصة أمها كانت تضغط عليها لتحقيق ذلك ، وأنا عاجز ، فمرات كنت لا أستطيع إكمال عملية الجماع ، فقدت الكثير من طاقتي الجنسية مع بنات الجامعة والنساء الماجنات .. كانت مأساة حياتي الجنسية أثناء الزواج .

علمت من أولى بنجاح مال في الثانوية ، وهو ويدرس المحاسبة في معهد متوسط ، يعمل لمساعدة نفسه وبمساعدة من أخيه بدفع تكاليف الدراسة والأهم أنه تدين.. وهذا أثار استغرابي .. وسعيت للاتصال به ، وتأكدت من تلك الاخبار .

علمت من والدها لميساء الاستاذ سعيد حسن أنه يعرف مالا كشيخ ، وأنه جاء لمسجد الحي لسماع بعض الدروس التي كان يقيمها إمام المسجد ؛ لذلك لما اشتد الضغط عليّ للانفصال طلبت تدخله ، وفعلا وفق بإصلاح ذات البين بيننا ، وأن أعطى فرصة أخرى ؛ لعل الحمل يحدث ، فتمدد الزواج لسنتين أو ثلاث .

وخرجت أعيش بعيدا عن بيت الوالد ، ثم تعاقدت للعمل في الخارج ، فغادرت لدول الخليج وعملت قريبا من خمس سنوات فيها ، وفي السنة الثانية لما عدت للبلد طلقت ميساء حسب الاتفاق ، وإنني عاجز عن تحقيق الحمل .

عدت من السفر نهائيا عام تسع وثمانين ، وأنهيت رحلة التعاقد ، وعدت مدرسا للعمل في مدارس الحكومة مادة العلوم في المرحلة الثانوية ، وعدت للقاء بمال ، وقد تعين إماما لمسجد في

إحدى القرى البعيدة ، فصرت ألتقي به في دكان صاحبه حسين خلو ، ونتذكر أيام زمان ، وأيام الثانوية ، وحدثته عن رغبتي بالزواج .

فقال : يا حبيبي يا ثاني أنت غير متدين.. تدين مثلي لأسعى لك في ذلك .

تجادلنا حول هذه النقطة .. التدين .. وأهمها ترك الخمر والشراب ، واستصعبت التدين ، ووعدته بترك الخمر والشراب ، وكان يظن أنني تركت الشراب لعملي في السعودية ، فأخبرته أن ذلك يحدث وإن بصورة سرية ، وهناك من يهرب الشراب .

حياة أولى مع زوجها كانت سيئة ، وكنت أسمع عنها من أمي ، وأحزن عليها ، وأدركت أن زواجها من مازن غلطة كبيرة ؛ ولكن ليس بيدي حيلة .. والصفات الحسنة لا تباع في الاسواق .. والرجل زير نساء ، وليست مغامراته نزوات عارضة ، وسفري ساعدني أن أبتعد عن مشاكلها وسماعها ،وآلمني بأن الرجل هجرها في الفراش ، ولا يقربها بالأشهر ، وأنها ترغب بالطلاق .

تاب والديّ ، وهذا أمر نراه في العائلة الكبيرة ، بعد أن ينتهي الكبير من أعمال الدنيا ، ويدركه العمر الستين يترك الخمر والنسوان ، ويتوب ويسعى للحج ، فحجوا عام ثلاث وتسعين.

وزار مال أمي ووالدي ، وبارك لهم الحج ، ونصحني مال بعدم الزواج من شفاء شقيقة مازن .

لم أجد امرأة تقبل بي كزوج إلا هي تلك الفترة ، ولم أقبل اعتراض أولى ومال ، وسكنت مع والدي ، فشفاء شقيقة مازن وقريبة أمي ، ويومها بعد زواجي لأخته سعيت بعودة علاقته لأولى وتحسينها بحكم المصاهرة الجديدة ، ودعوته لترك هجرها في الفراش كما شاع في الأسرة ، فتظاهر أنه مضطر لهذا الهجر ، وأن السبب أنها تتخذ العشاق ، طبعا لم أستغرب ذلك الدفاع ، ففي النهاية أولى امرأة وأنثى ، ولها رغبات كغيرها من النساء ، وبما أن الرجل ابتعد عنها ستبحث عن ذكر غيره .. وبما أنه يخونها علنا ، فهي مستعدة لخيانته ؛ ولكنه أحب أن يؤكد لي أن زوجته تخونه ، كما يخونها ، وأن لها عشاقا ، وأنه مستعد أن يعرفني عليهم ، وليبين لي فساد أولى ، حتى لا أبقى مصدقا أنها له وحده ، فدفعني الفضول لذلك ، وفعلا جمعني بصاحب

أولى في المعهد . وقال لي : هذا الرجل العجوز عشيقها !

حاول الرجل في البداية تكذيب مازن ، ثم اعترف أن بينهما علاقة جنسية منذ سنوات ، وأن له رفيق يشاركه في النوم معها : فتساءلت أهناك امرأة شريفة ؟

ولما شككت بالأمر ، وأن الامر مرتب بينهم . قال مازن : أنت لم تصدق ذلك ، أنا لست مغفلا يا ثاني .. أنا الوحيد الذي لم أستطع أن اثبت أن له علاقة جنسية معها هو مال .. واليوم صاحبك شيخا وإماما للناس .

فرددت مقسما :أقسم لك إن مالا لم يعمل معها علاقة قبل الزواج ولا بعده .

قال :أنا قابلته قبل زواجي من أختك ، وأقسم لي كما أقسمت لي ؛ ولكنها تحبه ، وهي تعترف لي بذلك ، وأرادت أن تسمي ابني جلالا مالا .

قلت : سمعت يا مازن .. أهذا الرجل العجوز أأنت متأكد أنه عشيق لأولى ؟ كيف عرفت ذلك ؟

قال : الأمر ليس صعبا يا ثاني.. أنا لما تركت النوم مع أختك ، وهي لم تكترث ، ولم تسع لإرضائي .. عليّ أن أدرك أنها وجدت البديل ، وببعض الجهد وببعض الحوار مع موظفي المعهد الذين يعرفونني كزوج لها أخبروني عن أكثر الناس لقاء بها بعد الدوام والعمل ، وراقبت شقته ، وعرفت شريكي في الفراش .. والحق لم يكن بيننا فراش إلا أمام الناس .. المقربون يعرف أننا بعيدون عن بعض ، وإنني تصالحت معها بعد مشكلة تلك الطبيبة المطلقة ثم قابلت الرجل وبقليل من التهديد اعترف لي بما يجري في بيته ليلة الجمعة .

قلت : وهل يمكنني أن أتأكد بنفسي ؟

قال :إذا لم تصدق أفعل .

وأعطاني عنوان الرجل وموعد ذهابها إليه ، وفعلت ، ورأيتها تدخل وهي في غاية التبرج ؛ وكأنها ذاهبة للقاء زوجها ، لا تظنوا أنني تألمت ؛ فأنا أقبل ذلك ؛ لأن لي مغامرات حتى وأنا متزوج ، ولا يعني هذا عدم الغيرة ، ما دام زوجها يرضى بفجورها فهل أمنعها أنا ؟! وأنا

الرجل الفاجر مثلها ؛ لكن لمعرفتي القديمة بأولى استغربت ، إنها الشهوة الفتاكة لمن أرخى لها العنان .. رأيتها تخرج بعد أكثر من ساعة من بيت عشيقها ، والرجل يوصلها لسيارتها ثم قبل يدها عندما تصافحا ، ثم رأيت العشيق الثاني يخرج بعد وقت يسير ، ويركب سيارته ، عشيقان في ليلة واحدة عدت مغموما ، وانتهى الموضوع ، وأن أختي كسائر النساء .

بعد عدة أسابيع من زواجي من شفاء بدأت حفلات السهر والمجون في شقة شفاء .

لم ترع لي حرمة أو أني زوج جديد ، فبدا أصدقاؤها أيام زوجها الميت يهلون للشقة ، ويلعبون الميسر ، ويمارسون البغاء مع نساء بعضهم ، وعرضوا عليّ مشاركتهم المجون ، فاحتججت على ذلك . فقالت شفاء : ثاني لا تعمل حالك شريف .

فقلت لها : أنا شريف ، ولم يحدث أن تركت ميساء مع رجل غيري .

صاحت : أنا لست ميساء .. وأنا أعرف شرفك .. ولا تنسى مرضك الجنسي أيام زمان .

قلت بذل : في البيت لا داعي لذلك ، لا أحب أن أكون قوادا .

انسحب الضيوف تلك الليلة ، وتعهد أحدهم بأن يكون السهر في بيته ، وبعد أيام عادوا ، وكان لهم ما لا يحتمل .

فهربت للخمر من شذوذهم ومجونهم حتى أنني لم أعد قادرًا على إقامة علاقة جنسية معها ، وكانت تعيرني : أرأيت أنك لم تعد ذكرا ؟

وزادت الخمر عندي ، فهذا كان الحل في نظري ، وافتعلت المشاكل والنزاع ، ومن ثم الشكوى لمازن وأمها ، فيقول : أنت لم تكن تعرف علاقات شفاء أيام زوجها جميل ؛ لكنه كان أنشط منك ينام مع نسائهم.. المعاملة بالمثل .

قلت : أختك شاذة يعني !

قال : ماذا يسمى تبادل الزوجات يا ثاني ؟

قلت : لا أطيق ذلك .

قال : مع الوقت ستتعود .

لم أستطع التعود على تلك الانحرافات ، وسكنا بشقة عند مازن ، ثم صار أكثر وقتي في درب القلعة عند أمي أشكو لها غمي وشذوذ ابنة خالتها ، فكعادتها تصمت ، صبرت سنتين دون حل ، أصر أبي على طلاقي لها قبل هلاكي أنا ، وحصل الطلاق ، ودفع والدي حقوقها ، واضطر مازن لطلاق أولى بالمقابل زاعما أن ذلك ارضاء لأمه وأخته ، وانتهى ما بيني وتلك الفاجرة .

وبعد طلاقنا بأسابيع ماتت أمي حزنا وكمدا على حالي وحال أولى ، فهي كانت تعرف من أولى نفسها عن علاقتها بالرجال والعشاق ، كنت أتسأل أين هي الحياة السعيدة ؟

جاء مال وقدم لي العزاء ، وعزى كل الأسرة ، وأشفق على والدي ، وحثني على التوبة والتدين وترك الخمر ، فبدأت مقتنعا بما يقول ؛ ولكني ضعيف وعاجز عن فعل ذلك ، وكانت حالة أولى بعد موت أمي صعبة ، وغرقت هي الأخرى بالإكثار من السكر والاعتزال بعد الدوام حتى أنها كرهت طفليها ، ولم تعد ترحب بهما .

ذات ليلة احتجت لدخان ، لم يحضر يزيد لي الدخان ، فذهبت لحجرة أولى لآخذ علبة منها ، فوجدتها عارية تماما ، فظننت أنها كانت تريد الاستحمام ، وحدث معها شيء ، فاقتربت منها ؛ لأوقظها ففتحت عينيها ،وظنت أني كنت أرغب باغتصابها فصرخت وصاحت ، فجاء أبي الذي ينام في الطابق الثاني معنا ؛ لأن يزيد بعد موت أمي جاء وسكن في البيت ، وأنا ذكرت لهم أني دخلت أريد الدخان ، ولم يصدق أبي دفاعي ، وهي ذهبت للمطبخ وأحضرت سكينا وحاولت قتلي ، وجاء يزيد ، ولبست ثيابها ، وأخذوها إلى بيت خالتي خوفا مني ، وبعد أيام حضر مال ، وتحدث عن تلك المشكلة ، وبينت له أسباب ذهابي لغرفتها والحال التي وجدتها عليها ، وحدثني أن لا مخرج لي من هذه الورطة إلا العودة إلى الله ، وترك السكر وعاهدته على فعل ذلك ، واغتسلت وعلمني الصلاة والوضوء ، وكان كل أسبوع يأتيني لذلك ، وخلال شهور تخلصت من الشراب نهائيا بفضل الله ، وعدت للتدريس ، وكنت قد رحلت من البيت حتى تعود أولى إليه ، وعدت بتشجيع من العزيز مال إلى دراسة ماجستير شرعي ، ثم الدكتوراه

وعرفني مال على بعض رفاقه الشيوخ والعلماء أو طلبة العلم في حي النزهات ، ثم سافرت للعمل في إحدى الجامعات في دول الخليج ، وكان والدي مسرورا مما آلت إليه حياتي ، وصدق طبعا أن أولى فهمت ما حدث خطأ .

ثم علمت من مال بزواج أولى وتوبتها ، وأنها سعيدة مع زوجها الجديد ، وأنها قد تركت المعهد والعشاق ، وعلمت بعد حوالي أربعين سنة أن السعادة والنظافة فقط بالتمسك بدين الإسلام فهو الذي يحمينا من الخدن والخليلات والعشاق والزنا والخمر والاباحية الجنسية .

ثم يسر الله لي أرملة لديها طفلان قد مات زوجها بحادث سير ، وهم مغتربون مثلي وقبلت بي تلك الأرملة عن طريق زميل لنا في الجامعة .

وكنت أكتب لمال وأسمع أخباره ، وهو يسمع أخباري ، ثم قررت العودة للوطن بعد اغتراب لبضع سنين ، وكان السبب موت والدي ـ رحمه الله ـ وحضرت دفنه ، ثم على أثر ذلك تصالحت مع أولى ، وبكت ندما على اتهامي ، وتسرعها تلك الليلة في اتهامي للنيل منها.

وحياتي اليوم تمضي مع الكتب الدينية والاصدقاء المتدينين ومناقشات علمية ومتابعة بعض القنوات الفضائية .. هذا مختصر حياتي .. ليس فيها شيء مهم ؛ ولكن كاتب هذه الرواية أحب أن أتحدث عن أهم محطات الحياة كما فعل مال ثم أولى ..وشكرا .

الفصل الأخير

احتفل رفيق دربي مال وبعض الأصدقاء بزواجه من أولى ، وحملهم ثاني بسيارته من قاعة الحفل إلى بيتها وشقتها المستأجرة في درب القلعة ، ولما جلسوا في غرفة الصالون ، استأذن ثاني ، وغادر البيت ، وأغلق مال الباب عاد إلى حبيبته التي أخذت بخلع ثوب الحفل ، ثم قبلها قبلة انتظرتها أربعين سنة ، وضمها إلى صدره ، ووضع يده على رأسها وقال اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه

وقال : فلنتوضأ أيتها الحبيبة ونصلي ركعتين أيتها الحبيبة عملا بسنة حبيبنا محمد ﷺ فتوضآ ، وصلت خلفته ركعتين لله تعالى .

وقال بعد الصلاة : اللهم بارك لي في أهلي ، وبارك لهم فيّ ، اللهم اجمع بيننا ما جمعت بخير ، وفرق بيننا إذا فرقت إلى خير .

وقدم لها قطعة من الشوكولاتة ، وهو يقول : كنت تحبين هذا النوع منها يا حبيبتي .. وحين نسهر في بيتكم كنت تقدميها لي . واطعمها إياها بيده وقال : حبيبتي !

قالت : كم أحببتك يا مال ؟

قال : الخيرة فيما يقدره الله .. لو تزوجنا قديما ؛ ربما تطلقنا عندما تدينت يا حبيبتي ! وضمها إلى صدره ، وأخذت هي تبكي وتقول : رحمك الله يا أمي !

فأخذ منديلا ورقيا ، ومسح لها دموعها ، وهو يقبل رأسها ويداعب شعرها : الأمر لله من قبل ومن بعد .

قالت :رجعت بي إلى أيام الصبا .

قال : الرسول ﷺ تزوج أغلب نساءه بعد الخمسين .. المهم السعادة .

ضمته لصدره من جديد وهمست : رضيت بي أخيرا يا مال !

قال :تغيرت الاحوال يا ملكيتي ! أنت تعلمين أنني أحببتك وتمنيتك زوجة ؛ لكن تلك الأيام كان زواجنا صعبا .

قالت : صدقت .. هل غفرت لي تلك الليلة ؟

قال : فعلت أيتها الحبيبة .. فأنت الآن لي وأنا لك .

عانقته وقالت: حياتي أسعدتني وانسيتني عذاب تلك الأيام من الجاهلية

قال : حياتنا الحق في إسلامنا .

قالت : الحمد لله رب العالمين .

حضر ثاني صباحا ، وجلب معه فطورا وحلوى ، وقال : لعلكما قضيتما ليلة سعيدة .

حمدا الله وشكراه وقال مال : عدنا لإيام الصبا يا أخي الكريم .

قالت : شكرا يا ثاني ! وكم ندمت عندما طعنتك بالسكين !

قال : تسامحنا يا أخية .. أنت خير أهلي لي اليوم .. وها قد عاد القدر وجمعنا جمعا ، لم نكن نحلم به .. وجئتم بخبر سعيد .

قالت : ما هو ؟

قال وهو يقبل يدها : كيف عروسك يا مال !

قال : قلت عدنا لإيام الصبا ، ما الخبر السعيد ؟

قال : لنفطر أولا قبل أن يقبل الاصدقاء والاقارب للمباركة لكم . دخلوا المطبخ

قال ثاني : هل قرأتم قرآنا ؟

قالت : الحمد لله صلينا الفجر معا ، وقرأنا ما تيسر منه .. وجلسنا نتغزل ببعض مثل تلك الأيام .. ما زال مال يحفظ تلك الاشعار عن حب عنترة وعبلة .

دارٌ لآنِسَةٍ غَضيضٍ طَرْفُها ... طَوْعِ العِنانِ لَذيذَةِ المُتَبَسَّمِ

يا دارَ عَبلَةَ بالجِواءِ تَكَلّمي ... وَعِمي صَباحاً دارَ عبلةَ واسلَمي

أَنّي عَداني أَنْ أَزورَكِ فاعْلَمي ... ما قَدْ عَلِمتِ وبعضَ ما لم تَعْلَمي

يا عَبْلَ لَوْ أَبْصَرْتِني لرأيتني ... في الحربِ أُقدِمُ كالهِزْبرِ الضّيغمِ

وقال :

وَلَقَد ذَكَرْتُكِ والرّمَاحُ نَواهِلٌ ... مِنّي وبِيضُ الهندِ تَقْطُرُ من دَمي

فَوَدِدْتُ تَقبيلَ السّيُوفِ لأنّها ... لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ

وقال مال ضاحكا :

وَقَد يَجمَعُ اللهُ الشَتيتَينِ بَعدَما .... يَظُنّانِ كُلَّ الظَنِّ أَن لا تَلاقِيا

لَحَى اللهُ أَقواماً يَقولونَ إِنَّنا ...... وَجَدنا طَوالَ الدَهرِ لِلحُبِّ شافِيا

قال ثاني : أكيد قضيت ليلتك تقص عليها أشعار الغزل .

أكلوا وشربوا الشاي من أيدي أولى ، ولما رجعوا لصالون الشقة قالت : طال انتظارنا للخبر السعيد ..هل وجدت عروسا كصاحبك مال ؟

قال : سأجد ـ إن شاء الله ـ الخبر السعيد أن شقيقنا المهندس يزيد سيفارق البيت قريبا بسبب زواجكما وينتقل لشقة في بنايته في العريقات وسيضعها تحت تصرفكم أنت ومال .. وهكذا نعود جيرانا .

قالت : خبر سعيد .. الماضي يعود يا مال !

قال مال : أنتم لم تقتسموا ميراث والديكم .

قال ثاني : قسم قديما .. ولماذا السؤال ؟

قال : كنت أظن أن له الارضي ولك الثاني .

قال : لا ، هو البيت الوحيد الذي ترك بدون تقسيم يا مال ! ظل للجميع وقبل أن أنسى ابنك المحامي وابنتك سيأتيان ليلا لتهنئتك بالزواج .. تحدثا معي بذلك .

نظرت أولى لمال ، وقالت : هددنني إذا تزوجتك سيقتلني !

قال مال باسما : أليس هو ابن زوجك الأول الذ ي كان يغار مني وأنا بعيد عنكم ؟

قال ثاني : لا تهتما بكلامه وتهديده .. هو فارغ مثل أبيه الميت .

قالت : يمر عليّ يا مال سنة أو أكثر حتى يزورني هو وأخته زاعمين أنني لم أربيهم ولم أهتم بهم قبل طلاقي من أبيهم ومن بعده .

قال مال : أهلا بهم ومرحبا يا ثاني .

قال ثاني : لم يكن من السهل نفسيا حضور زواج أمهم .

قالت : أنا لم أطلب منهم ذلك يا ثاني .

حضر جلال مساء وزوجته المحامية مثله لشقة أمه ليبارك لها زواجها ولما قرع الباب فتح له ثاني خاله وصافحه وحيا زوجته أم أمجد وتقدمها لصالة الاستقبال ، وصافح الرجل أمه ؛كأنه يصافح امرأة أجنبية وقال بصوت جاف متظاهرا بأن زواجها لم يرق له : مبارك يا أم جلال !

وأشار خاله لمال وقال : هذا زوجها مال الدين !

فقال : مرحبا . وجلس دون أن يصافحه متجاهلا يده التي مدت فقال مال : أهلا بالمحامي الغاضب !

هنف الشاب :لماذا الغاضب ؟

وكانت زوجته تعانق حماتها ، وتبارك ، وتقول : لا تهتمي يا عمتي بحركات جلال الرعناء .. مرحبا أيها السيد الكبير !

قال مال : أهلا يا ابنتي ومرحبا .. تفضلي بالجلوس .

جاورت زوجها ، وقالت : كيف أنت يا خال ؟

قال ثاني : أهلا لمياء بخير .. وأنت ووالداك ؟

ـ كلنا بخير

رحبت أولى بلمياء وسألتها عن أهلها وعادت للصمت والوجوم ، وقال ثاني : أين أختك ؟

ـ لم تحضر من العمل ؛ لكنها ستأتي .. واجب علينا لابد منه .

ضحكت أولى : ومنذ متى وأنت تعرف الواجب ؟

قال مال : يا حبيبتي ! جلال مازال شابا صغيرا .

قالت لمياء : كيف أنت والسيد يا عمتي ؟

قالت أولى : أهلا بكم .

قال جلال : لا أدري كيف امرأة بسنك تتزوج ؟!

قالت زوجته ـ وهي تتناول العصير من خادمة ثاني التي أحضرها لما أحضر الغداء لصهره واخته ـ : كما تتزوج النساء .. وهل للزواج عمر ؟

صاح الشاب : أنا لم أطلب الاجابة منك يا حضرة الدكتورة .

هي دكتورة في القانون قالت بحدة : ونحن منذ متى نتدخل في حياة أمك يا جلال ! وكما قالت لك إنها تمكث بالشهور ولا تتفضل عليها بزيارة .

وقف جلال وقال : مبارك يا أم جلال ! واسمحوا لنا بالانصراف .

قال ثاني : هو الأفضل .. فأنت ابن من ؟

صرخ جلال : ابن الشيطان يا دكتور !

قالت أولى : أفعالك هذه لا تزعجني .. أنت ما زلت طفلا .. شكرا لك يا لمياء !

قال مال : عندما تهدأ أعصابك فأسمح لك بالحديث معي ، فلن أحدثك عن البر والاحسان .. فأنت جاهل فيهما مع السلامة .

فقال جلال بحدة : تطردني !

قال مال : هذا بيتي يا ولدي ! من لا يحترمه فلا يستحق الاحترام .

خرج ساخطا تتبعه زوجته ، وهي تعتذر لهم ولما خرجوا قال مال : فعلت ذلك ؛ لعله يعود للحديث معي .. فهو مسكين جاهل .

قالت : حبيبي مال لا تغضب .. فنحن علاقتنا مع بعض سيئة .. فقد أشبعه والده كلاما سيئا عني ، وأني تخليت عنه ، وعن أخته صغيرا وشابا .. وأنا لا أكترث ببره وإحسانه .. فهو لا يعرف مثل هذه المعاني .. وله قصص كثيرة مع والده وجدته خالة أمي .. هو قدم مجاملا ليس لي وإنما لأقاربه .

قال ثاني : علينا أن ننسى هذه الزيارة .

قال مال : بالنسبة لي هذا لقاء عابر .

وبعد حين يسير رن الجرس ، وفتح ثاني واستقبل ابنة أخته فقبلته ، ودخلت وقالت : زوجي يعتذر لأمر طارئ .

وسلمت على والدتها وقبلتها من وجنتيها وقالت : مبارك يا أمي ! مبارك يا شيخ مال !

وجلست ، ولما كررت التهنئة والمجاملة قالت : تحدث معي جلال وخرج غاضبا ما الذي حدث ؟

قالت أولى : اسمعي منه ، فلن تصدقي ولو قلنا شيء أنت ما أخبارك ؟

قالت : كيف حالك يا شيخ مال ؟

قال : أهلا ابنتي! أنا بخير ..وأتمنى أن أراك بلباس أجمل من هذا .. لباس الطاهرات .

امتعضت البنت للغمز وقالت : شكرا ؛ لعل ذلك يتحقق في يوم ما .. كان عليّ أن أزوركم بلباس شرعي ؛ لكني جئت من العمل مباشرة .

قال ثاني : للأسف أسرة صهرنا السابق لا يعرفون ذلك .

قالت فريدة : يا خالي نحن جئت لأبارك لأمي .. فدعنا من أسرة أبي وأسرة أمي .. مبارك يا أمي ! والسلام عليكم قد أتمكن من العودة مع نضال .

قالت : لا داعي يا فريدة! فقد قمت بالواجب على رأي أخيك مع السلامة .

ودعها خالها للباب ، ودعا لها بالهداية فقالت : آمين، شكرا لك يا خالي .. فزوجي نضال يصلي مثلكم ؛ لكنه غير متشدد .

قال : لا أعلم كيف نحن متشددون ؟ عليك أن تصلي مثل زوجك حتى لا يجد من تصلي ويطلقك .

ضحكت وقالت : يطلقني ؛ لأني لا أصلي !

قال : قد يفعل .. عمره ما قال لك صلي!

قالت : إنه يصلي من عهد قريب .. ولا أدري كيف انقلب ؟!

قبلته وقالت : سيأتي نضال للتهنئة لأمي فهو يودها .

قال : أهلا وسهلا وتشرفنا.

كانوا يجلسون بعد زواجهم بأسبوع في نادي القراءة في انتظار الكاتب الذي دخل عليهم محييا بكل حب وقال : كيف عروسنا ؟

قالت : جزاك الله كل خير ! لقد حققت لي حلما ما كنت أظن أنه يحدث يوما ما ؛ فأنا مدينة بهذه السعادة .

قال : أنت لستِ مدينة لي بشيء ، ولم أتعب بإقناع مال الدين ، قلت له اليوم الفرصة متاحة لتعود مراهقا صغيرا ، فقال : كيف؟ قلت : ما دامت السيدة الفاضلة متدينة مثلك ، وترملت فتزوجها ، فستعود مراهقا . فقال : وهل تقبل بهذا الشيخ العجوز ؟ فقلت : ستقبل إذا كانت تحبك .

فقالت : ويلك !!

قال : يا سيدتي كثير من النساء تنكح من لا تحبه ؛ لأنها ترغب بأن تكون زوجة ؛ فإذا أتيحت لها الفرصة ؛ لتنكح من أحبيته لِمَ لا تقبل ؟

قالت : أي فلسفة هذه ؟

قال : وفقكم الله تعالى .. ودعونا من الفلسفة والحكمة .

جمال

تمت بحمد الله

١	ليلة العرس	٢	شمس عمري
٣	أيتام الحداد	٤	صديق أمي
٥	الأخ شريف	٦	أستاذ الفرنساوية
٧	غربتي وابنتي	٨	حي أبو خروف
٩	الحفل بالقط الأسود	١٠	الشقق السوداء
١١	حياتي قبل الحياة	١٢	امرأة نزيه
١٣	رهاب الطلاق	١٤	

حياتي قبل الحياة

هذه قصة ثلاثة رفاق

عاش اثنان منهم حياة رفاهية ومتع دنيوية

وثالثهم كان فقيرا ومكافحا البؤس

افترق عنهم عندما فشل في الثانوية العامة

والتحق بالعسكر خادما للعلم

ثم ترك الحياة الأولى إلى حياة التوبة والإيمان

وبعد حين لحق به أولى وثاني

إلى حياة أخرى

٢٠١٨